حسن هادي

الدفين

الدفين

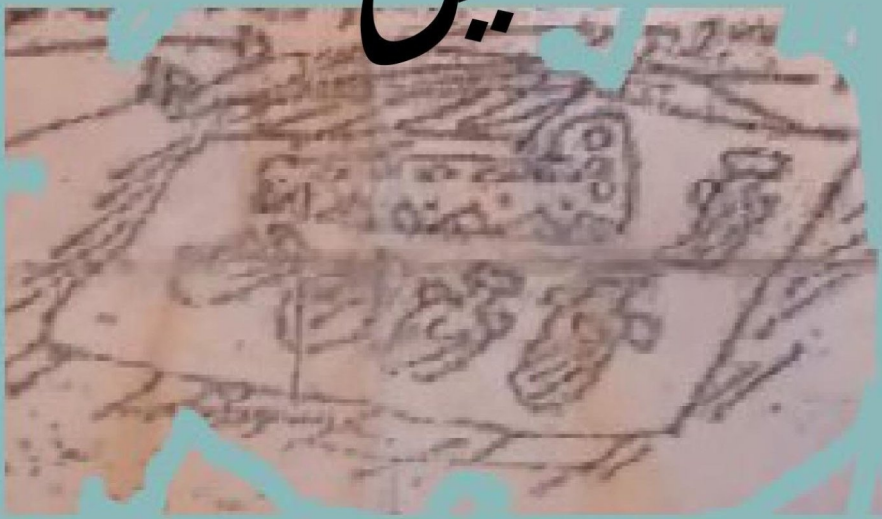

رواية

حسن إمامي

رواية

هذا الدفين!

...

سعاد.

بدا لها أمرا غريبا ومدهشا أن تكتب عن قصة حبها. رسمت ابتسامة هادئة قابلتْ بها فكرتها. كانت شرفتها تطل من وراء زجاج نافذتها على الأفق الممتد للمدينة وبناياتها وما ظهر من خطوط تفصلها شوارع وأزقة ودروب. لم يعد للشكل الهندسي المنتظم أي وجود. فوضى إسمنتية زحفت على ما تبقى من أشجار خضراء سامقة كانت يوما ما تتخلل المشهد، كانت يوما ما ملجأها البصري في الاستراحة من صفائح العمارات الجامدة.

تقف في الجانب الأيمن من بوابة شرفتها إذا، تتحاشى الجهة اليسرى حتى لا تقابل منظر البناية المهجورة. ما تزال تلك الفيلا القديمة مقاومة من أجل البقاء، لكنها في حالة يرثى لها. قرميد تهدم نصفه. إطارات اقتلعت. نخلة استوائية وقد بدأت في احتضارها ويبسها. أما شجرة الجوز التي احترقت فكانت كمشهد قيامة آتية. كل العمارات المحيطة بهذه الفيلا تسخر منها كأنها مقبرة الموتى وهي مأوى الأحياء. لكن، هل كل الأحياء يعيشون حياتهم كما يجب أو كما يحبون؟

الحب؟

هذه الكلمة التي كلما طرقت مسامعها وجدت طبولا منذرة داخل حواسها وشراييـنها. تسأل نفسها حين خلوة ما: أ ما يزال في مقدورها أن تهب الحب؟ هل ما تزال هذه الكلمة تحمل قيمتها فتكون قيمة القيم التي تُطهر وترقى بالإنسان؟ وتعلم بأنها دستورها الذي يخلّصها كامرأة من كل عبث هذا الزمان؟ إلا الحب. فهي لن تستسلم بالتنازل عنه. لن يصدر عنها ما سيعبّر عن قساوة قلبها وجفاف فؤادها. يومها، إذا وقع ما تخشاه، ستهجر هذه الحياة، أو على الأقل، ستهجر الناس والاختلاط معهم.

هي ذي ابتسامتها التي تنتصر بها على أشجانها، على ماضٍ شخصي بسيط بالنسبة لهذه المدينة، لكنه ماضيها الذي لن تتخلى عنه أبدا. أَوَ تكون الإطلالة على الفيلا هي التي تذكرها بانكسارات الذات، فيكون تجنب ذلك هروبا من ألم التذكر لمثل هذه الانكسارات؟ كانت تحاول كل مرة أن تقف متأملة أطلال هذه الفيلا الخربة تحديا ومقاومة لدواخلها وما تهدّم فيها. لعبة قد تخرج منها منهزمة ومعكَّرَةَ المزاج. ها هي اليوم وقد تجنّبتها، بل جعلت ستار باب الشرفة حاجزا ومانعا عن الرؤية لتلك الزاوية. وكيف ستوثر تلك الجهة على هذه الماثلة أمامها، خصوصا وأن غروب الشمس يهبها من جهة اليسار استحماما منعشا لجسدها. كل مرة يكون له دور في صفو المزاج وخفته.

ما تعلّمته من درس الفلسفة هو قيمة الوجود الذاتي واعتباره واحترامه. وفي هذه اللحظات، تعيد الاعتبار للذات، تعطيها

حقها في الجمال والشعور بالسعادة والإحساس بحب الحياة وكل ما هو حسن وجميل.

هوَ ذا جسدها كذلك، في منتصف الثلاثينيات. لم يخلق عقدة عندها بعد، كما لم يخلق السن أكبر العقد التي تفر منها النسوة عموما. ال"بروفيل" والسيرة الذاتية والتعريف بالهوية الشخصية على صفحة التويتر والفايسبوك وغيرهما من صفحات التواصل الرقمي، كلها تسجل تاريخ ميلادها باليوم والشهر والسنة. ست وثلاثون سنة، وهذا الجسد الغض الجميل، الواقف داخل إطار الصورة. هو ذا بدنها الذي تلبسه ثقافيا داخل سروال جينز وقميص أبيض مفتوح من الأمام حتى مفترق النهدين وقصير الأكمام حتى استبانة الذراعين النظرين. هي ذي ابتسامتها كما في الصورة. لا تنطق داخلها بكلمة، لا إنجليزية ولا فرنسية ولا عربية. لا (تشيز)، ولا (وي)، ولا (سِّي)... هي ذي ابتسامتها التي ترسمها في الصورة والتي تنبعث عبيرا في وقفتها هذه وراء بوابة شرفتها في الطابق الثالث من هذه العمارة.

هو ذا جسدها إذا. ما يزال ركحا للحياة. وتبتسم أكثر لهذه الكلمة. لقد تعلمت أن تحلل دلالات الكلمات التي ترتبط بمشاعرها وأحاسيسها وجسدها وذاتها عموما. أثارت كلمة الركح فضولا في النبش والغوص في بحر دلالاته وإشاراته الرمزية. أن يكون هو المساحة المخصصة للديكور والتشخيص مثلا، فكيف سيكون الجسد ركحا؟ أصدرت ضحكة متغنجة من سؤالها. لمحت الستار الوردي المتدلي في ثنايا أطرافه وقد

تمايل. أيكون تمايله تموجا مع كلمة الركح وكأنه ستار خشبة مسرح يهمس لرفع حجابه وعرض مشاهده أمام الجمهور؟ أم هو تمايل يسخر من ضحكتها مع نفسها، فيستغل الموقف ليقول لها: أنت جميلة وبلهاء يا سيدتي؟

لكنها أصدرت همهمة داخلية في تحدّ لمثل هذه الهواجس وهذه الأفكار التي تخترقها وتزعزع توازنها الوجودي. لن تستسلم لمثل هذه السخرية التي تزحف على خواطرها. ولن تقبل ما يمكنها أن تتمادى فيه وبه. تعلم أنه جسدها، وتعلم أن الموضوع يثير قضاياه المتنوعة والتي منها كذلك العلاقات الجنسية. لكنها تُطمئِن أركان الذات ومطاميرها. تريحها من كل تأويل أحادي: لا تكوني مكبوتة يا سيدتي. لا تكوني مفجرة لكبتك في صدري وشعوري وسلوكي. لا أتكلم عن الجنس هنا. على الأقل ليس عنه وحده. ليس بالخبز يعيش الناس، كما ليس بالجنس يعيشون. ارتحت؟

وهل هناك راحة؟ يخترقها السؤال الآخر المهدّم لهذا البناء: وهل يمكن للإنسان أن يعيش بدون أكل؟

- لا.

أسْمَعَتْ جوابها بصوت أنثوي ناعم رددته غرفة نومها. لكن الصوت استغل هذه النعومة وظرافتها، وتمادى:

- وهل يمكن للإنسان أن يعيش بدون جنس؟

تريثت قبل أن تجيب نفسها. علمت أنها في مصيدة المنطق الذي يجعل الاستنتاجات الموضوعية مفروضة على وعيها. كان التردد معبرا عن طبيعة الجواب وعلى كونه أمرا محيّرا فعلا.

هذا العقل، عقلها، تعتبرُه رأسمالَها في الوجود والتواصل، سلاحها الذي أنقذها طفولة من شقاء فحقق لها تمدرسا ونجاحا ووظيفة وثقافة وبحثا علميا. بحثٌ علمي ! عبارة وضعتها بين قوسين. كم جادلت ذاتها مثلما جادلت محيطها الثقافي والمهني. كلمة علم وما تسَعه من دلالة. كانت دائما تضع ثقافتها الاجتماعية، مشاعرها وأحاسيسها، جدليات محيطها وتاريخها، كل هذا تضعه داخل كلمة علم. وكان المحيط يناقشها، يعترض على رأيها. لكنها كانت دائما تعتبر كل وصول إلى استنتاجات وصولا إلى درجات من العلمية ما دامت تحقق نسبة من المنطق والموضوعية، ومن التركيب والبديل لكل إشكال أو عائق، ولكل جهل بوعي فائق جديد.

كان محيطها الذي تحتضنه والذي تخفيه هذه التذكرات وهذه الابتسامات، غالبا ما يستسلم في حجاجها لمنطقها واعتبارها. في نهاية المطاف، لا أحد منهم يمتلك الحقيقة. في نهاية المطاف، ألستم ملتزمون بالاستنتاجات كقواعد جديدة في مواقفكم وعلاقاتكم؟ إذا هي علم وقانون يسري في الحياة !

كل مرة يكون هذا المونولوغ بيان هويتها حيث ينصهر تصريف الأفعال والأزمنة المرتبطة بتاريخها الشخصي. تنصهر النفسية والعقلية في وعي متشكِّل بما أرادته له اللحظة.

...

التفتت إلى فضاء غرفة نومها. عالمها الذي تُحقق داخله جمالية عيشها وغالب يوميّها الخاص. تتأمل بعشق وبحب وتعلق كل شيء فيه. سريرها الجديد والذي لا يعلو على الأرض إلا بلوحة خشبية رقيقة بعشرة سنتميترات. شكله المستطيل المتحرر من كل إطار خشبي صلب قد يصدم القدمين أو يؤلم الجسد في كل حركة خاطئة، لا وجع ولا آلام إذا ما اصطدمتا به. خلفية جداره التي أصبحت ناعمة بنوعية الثوب الذي يغلفه وبلونه السكري المائل إلى صفرة خفيفة جدا.

لا زفرات. كل التغييرات التي أحدثتها جعلتها تحولا ناعما في حياتها.

لا تحسرات. كل القديم الذي لبس مع ذكراه حياة زوجية ماضية، هو قصة حب كانت قد عاشتها، فلسفة عشق تبنّتها، كانت هذه الابتسامة مطهرة من كل أشكال التلوث التي قد يسببها الشجن والتذكر أو هذا الماضي الذي يخيف الجل من الناس.

لقد وهبت الحب بصدق وتفان وتضحية. وهبت الثقة التي جعلتها لا تسأله أين ومن مع من أو لماذا. كان فؤادها بحيرة ناعمة صافية بلا أمواج ترتد في مد وجزر وتتمايل مع التيارات والرياح. لا غيرة تشتعل في دواخلها ما دام قد عبّر عن الحب، وأقسم على عدم الخيانة و صرّح بالنية. لا غيرة في زواجها وقد وثقته معه بعقد شرعي، وأقسم بربه لكي يكون وفيا ومخلصا وصادقا. كيف لا تصدقه وقد تزوجته على سنة الله

ورسوله. والإسلام دين الأخلاق والمعاملة، والرسول الكريم بعث ليتمم مكارم الأخلاق. كان الباب الأوسط للدولاب يحتوي جلبابه الأبيض الذي يرتديه مع لباسه التقليدي كل جمعة وكل عيد. ألا يكفي هذا للاطمئنان؟

...

الحمد لله. عبارة عبَرت شفتيها دون أن تزيل رسم بسمتها. في هدوء صدرت، في جمال رفرفت مثل فراشة التحفت أشعة شمس الأصيل فتلونت بها وانتعشت بآخر دفء يرسله النهار قبل أن تتدثر بأجنحتها المزركشة فوق لوح خشبي رطب يقيها من ليل بارد ومن خلقه العجيب.

وهو بوحها، لا آثار لقديم قد سجله بصرها معه. لا مناضد تقليدية كذلك. كل الأثاث الجديد بنفس لون السرير وجداريته. إلا ما كان من بساط الأرضية الممتد في لون بني ووبر ناعم يغنيها عن كل بابوش أو صندال. يحقق لها الخطوات المتهادية لقدميها العاريتين.

تؤنسها المصابيح متحولة الألوان وخفيفة الأشعة. يعجبها أكثر أن تجعل زر إضاءتها مع اللون البنفسجي الشفاف. ذلك التحول في ديكور غرفة النوم والانعكاسات الراقصة والمتراقصة بين السقف والجدران والأرضية هو أثاث الغرفة، ومع هذا الجسد الذي قد تجرده من كل ورقة توت حتى يسبح في انعكاسات الأضواء، حتى يتنفّس كيفما شاء. فهل تكفيها هذه اللحظة وهذا التحول كإشباع؟

تجلس على طرف السرير ممددة رجليها وفاتحة لمجلة في تصفح لموديلات أزياء عصرية مغربية وعربية وغربية. أثارتها صورة فتاة بقرطين فضيين مستديرين وكبيرين، وبأصابع نحيفة وأظافر رقيقة تحمل صباغة بنفسجية ونجيمات مذهبة. عنق جَيَد ودعج في العينين يناسبان محاسنها ككل. استمالة على آلة قيثارة بنية، جعلتها تتحسس عنقها فلم تلاحظ لا هنعا ولا غَلَبا. تمرر كف يدها اليسرى فوق ساق رجلها اليمنى التي وضعتها فوق نظيرتها دون أن تفارق صفحة المجلة الملونة. أثارتها سمرة الفتاة الفاتحة وفستان نومها الذي تعرضه صفحة المجلة. للعارضة وضعها في التصوير، ولها انثناؤها لجذعها على ركبتيها والذي طوى اللمسات المحققة لكل حنين. مشروع جديد وقد تأملت تفاصيله. ربما تتسوقه غدا بعد الانتهاء من عملها. قلّبت الصفحات، وها هو العنوان المثير الذي يعجبها أكثر في هذه المجلة: اِحْكِ يا شهرزاد !

لا جديد في بوح النساء في هذا العدد. قطبت حاجبيها. مواقف لم تقنعها في البوح رغم الصور التي ظهرت بها نساء هذا العدد في (احك يا شهرزاد!)، والتي تزينت صاحباتها بكامل الحلي وبالفساتين أو الألبسة التقليدية الرفيعة والماكياج اللامع. مواقع التصوير داخل منازلهن احتوت على أجمل ديكور للأثاث والنفائس المعترشة داخل قصورهن أو صالونات منازلهن. هناك منهن من نفعها صغر سنها، وأخريات تسلّحن بتجميل وتحضير مسبقين.

ورغم ملمس الإغلاق الهادئ لغلاف المجلة فقد كان وضعها لكف يدها اليمنى رامزا ومعبرا عن رفضها لهذا البوح النسوي التقليدي الذي يكرس دونية "بنات حواء" كما في تعبير المجلة وفي عنوانها كذلك. لقد أصبحت لعبة الكلمات ولعبة الغوص في دلالاتها محبوبة عندها منذ مدة. أصبح لعينيها بحر من الهدوء الذي تغوص في أعماقه بما استطاعت من تأويل. ما تحمله كل كلمة من معانٍ، وما يجعل التناسب والتناسق بين الحروف وهذه الدلالات، كذا التوظيف العملي والسلوكي المضمر في رسالتها الصوتية. لعبة مجنونة تعلمتها في تجارب جلسات صداقة جامعية وثقافية وصداقاتية. ها هي اليوم تعيدها. تخلّد لابتسامتها معها ما دامت تستحضر داخلها كل هذا السياق في الاجتماع والثقافة والفكر. تعلم أن العقل تمرد على الجهل، وأن هذا الأخير استغلال للوجود والتاريخ من أجل تكريس العمى والرتابة والواقع الدوني في جل الأشياء. تعلم أن النور يزحزح الأمكنة وأركان الكون فيمحي العتمة ويقضي على أسرار الجمود وحاله. تصدر ضحكة ساخرة من أفكارها، بقيت ريحها العليلة مدفئة لشفتيها.

هو ذا إذا. رفض لأفكار وتطلع لمناقشتها في هذا المساء الهادئ الذي أسدل ستار ليله بعد أن ودعت الشمس بقرصها وأشعتها القرمزية إطار النافذة والشرفة. مرت ساعة تقريبا على جلستها هذه. رفعت عينيها لتأمل منضدة الزينة. رضا على أبوابها الخمسة العريضة. لاحظت قارورة عطرها المفضل. وكأن هذه الأخيرة تتجسس على شرودها وجلستها الحالمة والسابحة. ابتسمت لها مثلما ابتسمت لأحمر الشفاه المنتصب فوقها وكأنه

مستعد لكل الملامسات، لصندوق ظلال العيون من نوع فينوس... لاحظت تأخرها في مناجاة شمعاتها الثلاث الملونة والمعطرة والعريضة. وكأنها تلومها غيرة على عدم الانتباه والاهتمام، مثلما تلومها على هذا الإهمال الذي جعلها ديكورا منسيا قد يطاله الغبار فيعطل وظيفته ونعومة تركيبه وتكوينه وعطره. أين هي احتفالياتك يا *سعاد*؟

ـ ها ! ذكرتِ اسمي؟ أظنك تكلمت؟

لا جواب. ردد الصمت استغرابها مثلما ردد عليها السؤال ومنطقه. فعلا لم تحتفل منذ مدة. لم تشعل الشموع منذ أشهر ولا رقصت لموسيقى جميلة. طن صوت منبه داخلي سمعت صفيره في أذنيها:

ـ متى آخر مرة احتفلت فيها بأمسياتك؟

ارتخت شفتها السفلى دون أن تفارق العليا. غنج عتاب ودلال تفاعل مع المحيط. وهذا العالم الذي شكّلته بذوقها وجمالية اختياراتها. نهضت في اتجاه الحمام ورشّت وجهها بماء بارد أيقظها من دفء وحنين هارب. كانت مرآة الحمام هذه المرة هي التي تحاورها في وقفتها وهي تجفف بللها بفوطتها الوردية:

ـ لم تجيبي عن السؤال؟

ولم تجِب هذه المرة كذلك أمام المرآة الثانية. خرجت منها هاجرة ابتسامتها وكأنها غاضبة من أسئلة التوتر التي تَحَالَف

كلُّ شيء في المنزل لكي يوقعها فيها. ملامح عتاب تدلت معها هذه المرة الشفة العليا فوق السفلى. ستتحوّل إلى جلسة الصالون وتشغل التلفاز. لكن زاوية من الصالون كذلك أثارتها بانعكاس بريق زربيتها الأطلسية ومسانيدها الحمراء القانية اللامعة والمنضدة. وكان النداء أقوى هذه المرة. كان نداء داخليا، روحا أطلسية تستمد شرعيتها في فؤادها وشخصيتها امتدادَ تجذر هذه الجبال فوق خريطة وتضاريس بلدها المغربي.

لن تشغل التلفاز. آثرت سماع موسيقى صوتية فقط دون ضجيج أو إشعاع شاشة. هي أغنية محمد رويشة الأخيرة التي سجلها قبل وفاته: إيناس، إيناس[1]...

[1] ـ أغنية أمازيغية ناجحة للفنان محمد رويشة: إيناس إيناس.. قل له، قل له... ماذا عساي أفعل للزمان... من لم يجد ما يقدمه لحبيب...

...

خطوة الحاضر

هو ماضيها، هو حاضرها، هو غدها وعيشها وتجربتها. هو قدرها في الحياة بين ضحكة ودمعة، بين فرح وحزن، بين تحقيق أمان وخيبة آمال. لن تكون استثناء من هذا العالم وهذا الكون الإنساني الذي تعيش فيه. حينما تسمع بوح صديقاتها المقربات، وزميلاتها في العمل والتفاعل اليومي الذي تتقاسمن فيه مشترك كبيرا ومعقدا داخل فضاء المدينة والحياة، حينها تدرك بأنها مثل باقي البشر. كجندي أو جندية استوقفتها لحظات استراحة من معارك، فنظر أو نظرت إلى حال جسدها ومحاربتها ومواجهاتها. حينها تأخذ نفَسا عميقا. قد تغمض عينيها أو تجحظ بنظراتها إلى محيطها الذهني والمجالي، وتستحضر ما بقي لها وما ينتظرها، وتستحضر أنثويتها وحقها في الحياة وفي هذا أو ذلك الآخر الذي يكمل طبيعتها، في هذا الذي أحبّته !

حينما أحبّته لم تسأل عنه قبيلة أو طائفة أو إقليما. كان شابا وسيما ظريفا، طويلا مبتسما. كان متحررا وقد تقدم للسلام عليها في بوابة المقهى طالبا الإذن بالكلام وأخْذ موعد لجلسة مقهى متى شاءت وسنحت لها الظروف. وحينما سنحت الفرصة وتسامحت مع مخاطر الأقدار التي ترافق هذا التحرر الذي اختارته في حياتها مثلما اختارته في مواعدة هذا العاشق والمفتون الجديد، كانت لقاءاتهما المتتابعة تبدأ بمقهى

"الليمون" مثلما قد يختاران شرب عصير فاكهة البرتقال أو الليمون مع تواجدهما فيها. كل مرة تفتح مواضيع جديدة في الحوار. كل مرة يعاد ترتيب الأفكار والأذواق والقناعات. كلاهما كان متسلّحا بثقافة يستعين بها في خلق توافق وانصهار بين مملكته ومملكة هذا الآخر الذي اختار أن يذوب أنانيته لتحل داخلها أنا الآخر ووجوده ومشاعره ووجدانه، بين وقفتها المتأملة وجوديا لحياتها على شرفة منزلها أو وراء ستار إطلالة شقتها وما تراكم من تأملات واستحضارات واستنتاجات تسلّحت بها ذاته وشخصها، وبين لقاءاتها بهذا المحبوب الجديد الذي كلما فكّرت في خيارات غير اللقاء به كلما ازداد تعلّقها بشخصه ووجدانه. وكأنه سرق دواخلها فامتلكها وتحكّم في محطات عوالمها.

...

لكن هذا اليوم، لن تنساه أبدا. جاء بعد أسبوعين من عدم اللقاء بينهما. حدّداه موعدا بتاريخ مناسب ليوم سبت هو الواحد والعشرين من شهر نونبر. هي الساعة الخامسة، وبعدها سيكون برنامج اللقاء وأمسية نهاية الأسبوع، وتعويض مدة الانتظار التي طالت لأسبوعين حتى يكون هذا اللقاء. دخلت تلك السيدة يرافقها زوجها وابنها ذو السبع سنوات من العمر تقريبا. الطلعة طلعتها، والجيد جيدها وصفحة الوجه ذكرتها بمراياها في شقتها التي قد تنتظرها هذا المساء وكل مساء. اقْشَعرّ البدن بعدما انبهر. ظنتها مرآةً، تلك الفتحة لبوابة المقهى وقد انعكست صورتها عليها. لم تلاحظها السيدة

المخترقة للفضاء الداخلي لجلستها. فتحةُ ابتسامتها وكأنها سرقتها منها.

ـ مستحيل !

سمعتْ صوتها وهي تحاور مرافِقيْها. ضحكتها وهي تتموج، لاحظت اتكاءها اللبق على الكرسي ويدها اليمنى التي جعلت رسغها مرافقها لجانب الطاولة أمامها. تساءلت مقطبة بعد استغراب:

ـ أتكون هذه السيدة مؤدية لدور تقليد حركي وصوتي تمثيلي؟ أيكون مَقْلبا وقد اتفق الجالس أمامها مع هذه السيدة على إيقاعها فيه؟ أهو قناع وضعتْه على وجهها، وشعر اصطناعي اختارته حتى تكون هي أنا أو أنا هي؟ من هي؟ من أنا؟

نهضت نهضة ثائرة على تساؤلاتها البركانية. لكنها سرعان ما تمالكت أعصابها بعد أن خطفت لمحة بصر سريعة لكنها عميقة ونافذة في عيني الجالس أمامها. اختبرت درجات تواطؤاته في احتمالات أسئلتها ودرجات واقعيتها وصدق تحققها. قسمات وقد تسلحت بحزم بدل تلك النعومة التي ترافق فلسفتها الأنثوية وثقافتها المتحضرة في العيش وحيويته اليومية. لاحظ من بداخل المقهى حركتها التي أثارت الجميع. اتجهت مباشرة أمام طاولة السيدة الشبيهة واستأذنتها في دقيقة لطلب أو سؤال. انسابت السيدة لطلبها في ذهول مثلما انسابت كذلك لما لاحظته من تشابه كبير بين ملامحهما. لم تكن لها تلك المسافة من

الزمن كما من النظر لكي يختلجها ما اختلج سعاد، هذا الزمن الأطلسي الذي بنت به شخصيتها.

ـ بكل سرور.

نهضت وتقدمت بضعة أمتار لتقف أمام مقاسها طولا، وجمالها مسطورا ومنحوتا ومخلوقا مجسدا في الماثلة شبها. وكان الاندهاش المتبادل وقَبول وقوع المحتمل. الطاولتان تتابعان المشهد. نادل المقهى وقد تسمّر بجانب المقصف مؤجلا كل خدمة منبهرا بما يرى. ردّد وربما سمعه من حوله: سبحان الله ! يخلق الله، من الشبه أربعين !

التفتت السيدة لرؤيته في زاويته مُوقفا كل حركة، وقد عمّ هدوء نسبي هذا المشهد وكأنها مُنازلة متوقّعة، يتابعها جمهور مناسب ومهتم ومنتظر بفارغ صبره وسؤاله كذلك هو الآخر.

ـ ما الذي يقع؟

سؤال ربما طرحه كم من ذهن وبدرجات تعجب وتوجس وحيرة مختلفة ! ما الذي وقع ويقع؟

...

...

صفاء

كانت صفاء مهندسة زراعية تعمل بالمختبر الزراعي الوطني بالعاصمة الرباط. انتقلت من مديرية عملها القديم بمدينة الصويرة. لم ترغب يوما في مغادرة مدينة الصويرة. فبها توجد عائلتها المشكلة من أخوين وأخت كبيرة. وبما أنها هي آخر العنقود كما يحلو لأخيها أستاذ مادة الاجتماعيات بمدينة مراكش أن يناديها بها كعبارة، فقد كانت المقربة من الأب، السيد حمودة آيت البهي، فلاح مشهور بالمنطقة، آثر جعل الاستقرار لأسرته بالمجال الحضري لمدينة الصويرة بينما استمر استثماره المباشر للضيعة في تنقل بين المدينة وخارجها طبعا.

كان هذا التباعد خارج دائرة تفاعل أفراد الأسرة. ولا يمكننا فهم حياته اليومية وتاريخها دون استئذان زوجته التي تمتلك أسرار وخيوط حكاية قديمة أو هي حكايات ربما. وقد لا تختلف عما يقع في مناطق عدة مغايرة أو في باقي العالم، ما دامت تشاهد المسلسلات المدبلجة وتتابع بعضها التي أنتجتها التلفزة المغربية في تقاطع للمواضيع وتشابه في الأوضاع.

لالة رابحة ابنة أسرة بدوية وسليلة ضريح سيدي رحال المدفون بالسفح الشمالي لجبال الأطلس الكبير على الطريق الرابطة بين مدينتي مراكش ودمنات، والذي يعطيها هوية أقوى

شعورا وتواصلا. وكلما تباعد الزمن والمكان كان تمدد ذلك الشعور بالكبر والقوة بحسب الحاجة النفسية والاجتماعية. لكنها كلما نخرها الماضي بأسراره التي تعلم جلها، استنزف منها روحا تكاد تطّاير هروبا للسماء خوفا من انفجار براكين هذه الأرض التي تعيش فوقها. وكان السيد حمودة آيت البهي من يمتلك البندقية وشحنة بارودها، من يهوى الفروسية وامتطاء خيولها، من يربي في ضيعته خمسة خيول بين ذكورها وإناثها، من يتباهى بالمشاركة في المعارض الفلاحية بشقيها الرعوية والزراعية وينضاف لهما ما يُتوّجُه كأحسن مربٍّ ومروض ومحافظ على سلالة فريدة للخيل في أن يكون صاحب درع الفروسية الذهبي في كم من دورة. سلالة الخيول البربرية المعمرة في القدم لأزيد من ثلاثة آلاف سنة. ويكفيه فخرا أنه عضو في التعاونية الفلاحية، وضيف شرفي في لقاءاتها الدولية. حتى من دورة ألمانيا الفلاحية شارك فيها إلى جانب من سيصبح وزيرا للفلاحة. هكذا أضاف رمزا على رمز في سيارته كما في إصطبلاته وعلاقاته.

إنما شحنة البارود كلما تفجرت حفنة منها كانت أنفاس لالة رابحة تختنق بدخانها الذي يكاد يفجر وسادة الماضي التي لم يعد الفلاح الكبير يعتنقها توسدا في نومه لمدة طالت أمدا. وتحمد الله على عشها وفلذات كبدها التي نمت وترعرعت وشبت وكبرت قيمة وشأنا وتفرعا بتشكيل أسر صغيرة كانت آخرها تزويجها لبنتها صفاء قبل أن تقرر هذه الأخيرة الانتقال ترقيةً في مهنتها التي يسّر لها اسم أبيها فيها أن تحظى بالأحسن منصبا وقيمة بل حتى زواجا. فقد كان زوجها في

درجة منصبها قبل أن تصبح هي صاحبة الامتياز في الترقي والعمل بالعاصمة الرباط.

ـ الرباط مرة واحدة يا بنيتي !

ـ تعلمين يا أمي أنني لا أقدر على فراقك أو الابتعاد عنك. لكنها فرصة لي ولزوجي ولحفيدك في العيش والعمل والدراسة بالرباط. إن شاء الله تنتهي المهام هناك وأنتقل من جديد لأبقى بقربك هنا في الفيلا. ما رأيك يا أمي؟

ـ لو اخترت مدينة مراكش كان الأمر أسهل.

ـ ألا تحبين السفر وتغيير الجو؟ كفاك تضحية من أجلنا وبقاءك هنا طيلة هذه السنوات.

وكان اللقاء.

...

ـ اسمحي لي بهذا الطلب. لكن، ألا تلاحظين بأن ما دعاني إلى مخاطبتك وسؤالك هو هذا الشبه الموجود بيننا ؟! وكأننا توأم واحد. أتساءل معك ما سر هذا التشابه؟ وقبل ذلك أقدم لك نفسي: أنا سعاد المغراوي، ابنة مدينة بوفكران بإقليم مكناس. وحيدة أبي وأمي، وأستاذة اللغة الفرنسية بإحدى ثانويات مدينة مكناس التأهيلية. الجالس معي مشروع خطوبة وزواج إذا كُتِب لنا ذلك. لكنني أرغب في التعرف عليك أنت الآن. هناك دقات قلبية تدفعني لكي أفتح معك قوسا جديدا في حياتي. ما هو؟ الله أعلم.

سكتت سعاد، وصمتت عن الكلام، وملامح وجهها وقد اعتلتها حمرة دم متدفق مع الشرايين. قد يكون جهازها العصبي وقد استنفر خلايا وأوردة هذا الجسد. قد تكون اللحظة هي التي امتلكت سلوكها وتصرفها. لا هي تحكمت في حواسها، ولا خجلها الأنثوي أمسكَها عن الإقدام على هذه الخطوة. وهي في لحظة تعجب، وكأنها تريد أن تفجر ينبوع كلام بقي مطمورا وغائرا تحت الأرض. لم تفهم سر كونها البنت الوحيدة لأبويها، ولا كونها محط صراع ونزاع بين أفراد أسرتها الذين تعتبرهم أقاربها كأولاد عمومة من جهة عمّيْها أو من جهة عمّتها.

صراع الإرث الذي وقفت فيه أمها عائشة وقفة المحاربة لكي تفاوض وتصفيّ أموره مع إبعاد سعاد عن مناخه وجلساته.

تدرك اختلاط الكحل بالدموع، وبقاء الجفنين محفورين ومغروسين بأثر حرارتها المذيبة للقسمات. كل هذا تلاحظه يوميا في سلوك أمها وفي صوتها الذي لا يخون في تغيّره وكتمه لأسرار أحزان ومواجع وبحّات تكاد تخطف الألفاظ والحروف المشكلة لها.

...

(عباس) !

يتابع السيد عباس السالمي وقفة الأنثيين. شكلهما المختلف الألوان والمتكامل الوصف في البنيان. يعلم هو الآخر أن إقدام سعاد على خطوة مماثلة في محاورة فرد آخر لن يكون منبنيا على فراغ. أكيد هناك علاقة قرابة بينهما. يعلم بإشاراتها تلك الصراعات العائلية التي توجد بين أقاربها ومعهم. في ما تخلّل نقاشاتهما كان التعبير عن المواقف الثقافية من الظواهر الاجتماعية والسلوكات الفردية للأشخاص في شتى وضعيات، يترجم شخصية كل منهما ويعطي مفاتيح لفهم الأخرى، وربما فهم الذات كذلك.

لم يستطع التخلي عن سيجارته بعد. ناقشا المسألة كم من مرة، فكان إرجاء الحسم للآتي طبعا. إقامته بمدينة الرباط جاءت عبر قرار إداري حسم في تواجد موظفين كثر بمؤسسته البنكية التي

لم تواكب المنافسة الوطنية والدولية والذين سيتم نقلهم لمقرات عمل جديدة. بقي فرع مكناس رمزيا في الحضور لأجل التمثيلية الإقليمية والمحلية، بينما العملُ البنكي المواكب ليومي الأشغال والمصالح الفردية والتحويلات والعمليات التنسيقية بين المؤسسات التجارية والصناعية والتدبيرية وغيرها، تركّز حصريا في الشريط المحوري بين مدينتي القنيطرة والدار البيضاء، وبينهما العاصمة الرباط طبعا.

شهادته المهنية في الإحصاء ومعالجة الملفات المالية خوّلت له تواجدا مستمرا داخل مؤسسته، في حين عرف آخرون تسريحا أو انتقالا إلى مؤسسات بنكية أخرى. لكن عباس السالمي داخل كل هذا شخصية أخرى. ذلك أن عالم المؤسسة البنكية ليس هو عالمه وكونه الخاص. كما أن علاقته بسعاد لم تكن بالعلاقة العادية جدا ولا بالمماثلة لشبيهاتها في باقي العلاقات، أكانت غرامية عابرة أو مبنية على مشروع ورغبة في زواج.

كم من مرة تفكر سعاد في غريب الطباع هذا. وكم من مرة تحاور نفسها في احتمالات: حتى إن لم يكن زوجي المستقبلي، فسيكون أخي الخالد أو صديقي الذي لن أتخلى عن جلسته في المقهى ومجالسته في سفر او مجيء إلى الرباط.

هي تعلم مع مرور الوقت وطول العلاقة الجامعة بينهما جوهر روحه. ولذلك أحبته. يعطي سخاءً كل ما يملك، ويخدم كرمًا بما أوتي، ولا ينتظر مقابلا. ليس صاحب جهر بشعارات ولا متملقا في وصولية ما. نبيل حد نزع زوجيْ حذائه في برد قارس

وجعلهما في رجلي متشرد ما دون أن يلفظ حرفا واحدا. وكم باشرت وتابعت سلوكات من طرفه مثل هذه. لو بدأت في استحضارها لذوبت كل الخلافات الموجودة بينهما، وكل الأخطاء التي يكون قد ارتكبها في حقها لأجل هذا الشخص الملائكي الذي يسكنه، والذي أحبّته فكان المنتصر عليهما في كل محاسبة. وكأنه لا يملك إلا روحه التي يترجمها ذلك الملاك. أما شخصه اليوميّ في ما يعيشه فقد تحكي عنه سعاد ما تعرفه عنه خلال التأمل والاستحضار:

هو عباس الذي استطاع إخراجها من عزلتها التي اختارتها بقناعة وانتقال حياتي من تجربة حسمت فيها عمليا لكنها لم تستطع استئصال أشواكها من دواخلها بسهولة. لم يكن التغيير في فلسفة العيش اليومي بكافٍ هو الآخر، كما لم يكن استبدال أثاث بأثاث أو ديكور بديكور أو موسيقى واختيارات مرافقة بأخرى بكافٍ هو الآخر، كل هذا لم تستطع معه وحده الخروج من تجربتها السابقة لولا مصادفة هذا التعارف الجديد مع شخصية عباس.

ولن تحلل هي أكثر حتى تترك بحدسها رياح وتيار التحولات تقع بداخلها كطبيعة تغيرها الفصول والعواصف.

...

ها هي واقفة الآن أمام توأمها شبها وخلقة. وهي تعلم بأنها مجازفة. فما يخبرها به حدسها ربما يكون خطيرا على بنيانها الذاتي والوجداني. هذه المسماة صفاء والتي قد تكون نقيضها

في الوجود الذي إذا حضر وتواجد قد ينفيها ويعدمها. ربما هي ابتلاؤها الذي سيستفز قدراتها وطاقاتها التي تمتلكها والتي تتسلح بها لخرق العادة والوجود الرتيب وعدمية الواقع.

تسترق كل مرة نظرة مبتسمة بحذر تجاه عباس السالمي. تلتقي الأعين وتستقرئ الحدث ووقعه دون حاجة إلى كلام أو مزيد تمديد لزمن التفكير والحوار. تساعدها النظرة على المضي وعلى الخطوة المقبلة في الكلام وفي الحوار. بينما بقيت عينا صفاء مسهّمتين وثاقبتين في تفحص ملامح وذات سعاد كما كلامها وقسمات وجهها وحركات شفتيها وصوتها وابتساماتها وضحكاتها وتعجباتها وتأوهاتها، وهي تتكلم وتحاور.

لم تشعر صفاء بنفس الغرابة والاستغراب اللذين بديا مع سعاد. هل تبادلا الأدوار في ذلك؟ ومن منهما طرح مثل هذا السؤال والتساؤل؟ هل يمكن أن يقع فعلا تبادل الأدوار والسلوك الحدسي المرافق؟ لم تحتجْ صفاء لمثل هذا التساؤل الآن. ساعدها الشعور بأنها في مدينة إقامتها وعملها، المدينة التي احتضنتها كطالبة في المعهد الزراعي ففجرت شخصيتها الجديدة التي جعلت منها الإطار الكفء والمرأة المتحررة من كم قيود مجتمعية، وسيدة أسرتها التي تتحمل مسؤولية سعادتها مع زوجها.

لقد قضت بمدينة الرباط أربع سنوات كطالبة، وسنتين من العمل قبل أن تنتقل إلى مدينة الصويرة. وها هي الآن وقد عادت في ترقية عمل ومسؤولية أكبر. قد تعلم كل الخيوط المتحكمة في لعبة الحياة، لكنها لا تحتاج لكي تفصح عنها للجميع ولو

لوعيها المباشر والمتكلم. إنما هي الثقة بالنفس وفي الكيان وفي اللحظة. ربما هذا ما غاب عند سعاد التي كانت في مهمة أصعب، في ملف حبّ لا تدري رحلته النوتية كيف ستواجه العواصف الآتية. وعباس بحار صاحب المواجهات الكبرى في الحياة والتحديات الملحمية التي لا تخاف الموت ولا الفناء ولا الضعف والوهن في الآتي.

كانت وقفة سعاد المطلة من شرفة شقتها بمدينة مكناس والمتأملة لوضع علاقتها مع عباس لحظة حاسمة في محاولة اتخاذ قرار صعب، في المضيّ أو الإحجام عن هذه العلاقة. لكن هذه اللحظة الآن بمدينة الرباط وبإحدى مقاهيها شعرت معها بأنها فراشة هينة وضعيفة، تعتمد في بقاء أجنحتها على حماية المرافق لها. لذلك كانت تعود بالنظر إليه كل حين.

من تكون سعاد هذه؟ من تكون صفاء هذه؟ سؤالان تم تبادلهما همسا في انتظار الأسئلة الصعبة التي أضمرتاها والتي أضمرها معهما المرافقون في هذا اللقاء. تم تبادل المعلومات ورقمي الهاتف وتم الاتفاق على الاستمرار في التعارف وبرمجة لقاءات جديدة إن شاء الله تعالى.

إن شاء الله ! هذا ما احتاجه كل منهما. توكلٌ على الله وعلى القدر وقضائه الذي ربما يخبئ الكثير. في عودتها من مدينة الرباط، تساءلت سعاد: هل يكون القضاء والقدر متحكما في الماضي أو في المستقبل؟ الماضي فات ولم يعد. إنما كيف سيعود استحضاره في المستقبل؟ نحن مستقبله الذي يحقق

تغييراته فينا. هكذا فلسفت عباراتها وهي تستحضر الحدث وجديده.

تغيرت درجات تنفسهما. تغيرت موجات وصوتيات ضحكاتهما. اخترق فتح جديد دواخلهما. ربما لم تعِياه بعد، لكن حدسهما يشير إلى أمر جديد لا يعلمان ما هو لحد هذه اللحظة من اللقاء الأول.

...

تنام سعاد متوسدة غالبا كفَّ يدها تحت الوسادة وأخرى ضامّة لها من تحت خدها. أحيانا تبدأ مونولوغا قبل أن تغمض عينيها وسط ظلمة اختارها الليل للأنام لكي يستريح أحدهما من الآخر. كانت قد ابتسمت في جنح الظلام وحلكته وهي تستنتج تساؤلها وتطرحه متفلسفة مع الوجود: من يرتاح من الآخر؟ الوجود أو الإنسان والخلائق؟ وكانت قد أجّلت كلّ جواب منتشية بسؤالها العريض والعميق الذي جرّد فكرها ونفض عقلها من جزئيات اليومي المتعب والرتيب.

هي اليوم، وما دام اليوم من ليل ونهار، وقد عادت من مدينة الرباط، أجلّت حسمها في علاقتها مع عباس إلى حين استكشاف جديد هذه الصدفة. وربّ ضارة نافعة، أو: الخير في ما اختاره الله تعالى... أو غيرها من العبارات العابرة شعوريا أو لا شعوريا، لكنها لوازم منطقية تعطي الاستنتاجات الضرورية والسريعة للذهن لكي يواصل عمله وسلوكه التفكيري.

فعلا، ما له الأولوية الآن؟ تخميناتها المستجدة أم حياتها العاطفية التي أصبح عباس جزءا مكونا منها سواء في الوجود أو العدم؟ فهي لا تستطيع عيش يوم دون استحضاره أو إحضاره ماديا أو افتراضيا. مرحلة جديدة من حياتها، دون تجربة ماضية فيها وحاضرة معها، راهنت على التغيير في الآنية، تختبر صمودها أمام المجهول وأمام التحديات.

لا تعلم لماذا كانت مراجعاتها لخصائص النظر والبصر حينما أرادت زيارة طبيبة العيون والبصريات، صديقتها كوثر بنيس.

ـ لون عينيك يمتلك سرا عجيبا وجميلا. إذا سألتك عنه ستجيبينني بأنه عسلي داكن. لكن حقيقتهما أنهما لوزيتان فاتحتان. قد يخدعنا ضوء النهار في التعرف عليهما، لكن رؤيتهما بعيدا عن الأشعة تساعدنا على اكتشاف بحرهما الجميل. تحتاجين لشاعر كي يصف لك جمال عينيك.

تضحك الطبيبة كوثر وهي تختم تعليقها وتترك سعاد في حيرة جميلة، ما دامت لأول مرة تسمع مثل هذا التعليق والاكتشاف لعينيها. تذكرت وهي وسط ظلمة الغرفة كل هذا، كما تذكرت أنها حين محاورتها للسيدة صفاء كانت تركز نظرها على طبيعة وخصائص عينيها وحدقتهما وفتحتهما الخارجية مع قزحيتهما المحيطة. ربما كانت السيدة صفاء تمارس نفس الرياضة، ذلك أن كل واحدة منهما شعرت بأنها مخلصة في النظر والتركيز على استدارة وملامح الأخرى.

ـ هل نستطيع جعل تحليل لخصائص العينين لنرى أية علاقة يمكن أن توجد بيننا؟

ـ سأسأل كوثر غدا لأرى ما العجيب الذي يمكنها أن تفاجئني به.

اختارت سعاد خلوتها في الحياة. هكذا استأنست باللفظ والمصطلح الذي يحمل مفهوما مغايرا لما تفسره به في ثقافتها وتكوينها. الحياة الشخصية، الحرية الشخصية، الحق في

فردانية مريحة. هكذا استنتجتها مع ثقافتها الفرنكوفونية والأدبية والفلسفية. فسعاد تحمل هموما ثقافية وجدت بفضلها في عباس السالمي ذلك المشاكس الذي لا يبالي بنواقص المجتمع الثقافية وعقده النفسية. وقعت في شباك وحيرة بين نارين. نار المجتمع الذي ينتقص من المرأة، ونار الشخص الذي أحبّته والذي تعالى عن جدليات مجتمعية متخلفة. رجل استطاع أن يتخلص من حمم نارية لفّت ذاته فخرج منها مثل سيدنا إبراهيم الذي خرج من نار باردة. لكنه يختار الارتماء في حممه الخاصة والتي قد تكون خطيرة على حياته وبقائه سالما في صحته ووظيفته ومحيطه. لن تفتح سعاد قوس مجهولِه وأسرار شخصيته الآن، فهي تعيش على وقع اللون اللوزي الذي امتلك ظلمة غرفتها. وكأنها متواصلة بشكل تخاطري مع نظيرتها، متفاعلة حدسيا معها الآن داخل هذه الظلمة. فهل ستكون السيدة صفاء في تواصل مباشر معها الآن داخل حلكة هذا الليل البهيم؟

أخذت نفسا عميقا متجددا، وسرحت بذهنها في تاريخ عينيها. تعلم أنها تمتلك سحرا منفردا معهما يجعل الجل يلتفت لها ويسترق طلعة نظرها لكي تلتقي العيون وتتبادل النظر وربما الابتسامات أو ما يدل على تراضٍ مجهول المقصود.

...

جعلت مكبر الصوت لتملأ بمكالمته سكون هذا الليل. لم تجبها سوى اللازمة الآلية المسجلة: إن الرقم الذي تطلبونه مشغول حاليا أو خارج التغطية.

كررت محاولاتها مرات متعددة. لا حياة لمن تنادي. تعلم انزياحاته وحالات شروده. وقد تكون هي سببا في جديدها هذه المرة. كانت قد ألغت كل مشروع لنهاية الأسبوع معه فعادت إلى مدينة مكناس وكأنها قد تفكرت شيئا مهما للغاية. تخيلت باب الشقة منسيا مفتوحا ومشرعا. توهّمت رائحة غاز متسرب من المطبخ. شعلة سيجارة أو عود ثقاب ستوقد وتفجر كل شيء أو إنها العمارة وقد احترقت وانهارت. لكن كل شيء من هذا لم يقع. حينما ولجت شقتها في منتصف الليل جعلت مصباحا باهتا يضيء أطلال الممر بين الغرف وشرعت كل النوافذ وبقيت جاحظة العينين تعانق لوحة السماء المخترقة لإطار النوافذ المفتوحة والمقابلة لجلستها. وكأنها دواخل نفسيتها التي تحتاج لكل هذا الانفتاح وللبحث عن المجهول فيها.

انطفأ الهاتف واحتاجت بطاريته لطاقة جديدة في شحن كلي جديد. ساد صمت مروع اخترقته دقات قلبية وكأنها طبول حرب تحضر لرقصة ما. صعد دويها إلى الدماغ فكان امتدادها شبكة جهاز عصبي على إيقاع غير مرغوب فيه. أنذرها كل هذا بشيء غير مريح. خمنت مَن أو ما سيكون السبب؟ عباس السالمي؟ لا. فمعاركها معه أقوى من هذه. وهو الآخر يعلم أنها لم تفر منه بقدر ما فرّت من ذاتها وبذاتها. ربما خافت من أسئلته التي يتقن التحضير لها وصياغتها وتوقيت ونبرة طرحها. زاحمت بنفَسها كل محاولة صياغة لها.

هل ستكون السيدة صفاء التي التقتها هي السبب؟ لم يتبدّ لها جواب.

...

في عز هذا الليل البهيم الذي أغلقت نوافذ وستائر غرفة نومها معه بعد أن تشبّع الفضاء كما الذات بهواء جديد ومتجدد، فلم تستطع أشعة مشاغبة لأنوار السيارات أو لمصباح شارعها الذي قد يجن أحيانا فيختار التراقص بين الإنارة من عدمها مرتعدا ومستعجلا دبدبات لا يختارها، اختراق فضائها وخلوتها الليلية. كانت عيناها ما تزالان جاحظتين.

تحولت وضعية نومها المعتاد، وأطبق الصمت المظلم وهي في وضعية قرفصاء ضامّة رأسها بين فخذيها ويداها متشابكتان حول ساقيها. وضعٌ غريب أحدث ألما بعضلاتها. أجهشت بالبكاء في شهيق ودمع بلّل بدلة نومها الزرقاء. مالت كما تأتّى لها موسدة ذراعها اليسرى وبكاؤها يزيد احتراقا، كطفلة صغيرة حرمت من لعبتها أو كرضيعة تأخرت عنها أمها في إرضاعها فبحثت عن تعويض في غفلة نوم دون خروج من حالة حرمان.

...

تمتلك السيدة صفاء من الثبات والهدوء في الحركة ما يجعلها محط تقدير وحيطة وحذر في كل تواصل معها. هدوء ينم عن ذكاء وترتيب منطقي لكل شيء في حياتها. قد تكون هي الأكثر اندهاشا مع ما وقع، لكنها لم تُبْدِ ذلك رفقة زوجها وابنها أنس. السيد عصام الوافي، مهندس زراعي متخصص في اختبار جودة البذور وتنوعات تخصيبها وملاءمتها للمناخ والتربة والبيئة. لكنه اليوم في مجال عملٍ إداري أكثرَ منهُ مختبريٍ، بحكم تنقله بين مدينتي الصويرة والرباط خلال سنوات العمل هذه. لم يكن ليوافق أحدُ أفراد عائلتها على زواجه من الآنسة صفاء حينها لولا إلحاحها وتأييد أخيها مصطفى أستاذ الاجتماعيات بمدينة مراكش. كانت وما تزال ترى فيه مكملا لشخصيتها وحياتها ووجودها. هكذا عبّرت كم من مرة. هي في المختبر، وهو في الميدان. هي في التحليل والتشريح والتركيب، وهو في الزرع والتخصيب الحيوي مع التربة والماء والهواء. هي الرحم وهو الولادة الخارجية للجنين. لكل حمقه وجنونه، وهذا جنونهما الذي طوّراه تشبيها ومقارنة وتكاملا وتعبيرا بالكلام والهمس.

لم تشعر صفاء براحة داخلية. رتّبت سرير ابنها أنس. حكَت له قصة جديدة باللغة الفرنسية، تذكّرتها من بين مقروءاتها

القديمة. شكّلت بخيالها من خلال لوحتها المرسومة في الذاكرة عوالمها مجددة لها ولعناصر حكيها: عودة الحمَل إلى أمه.

وقبل أن تختم قبلة على خدّه وجبهته فتح عينيه المثقلتين قائلا: هذه القصة تشبه قصة الشبل وأمه اللبوءة التي شاهدتها في التلفزة.

ابتسمت وأطفأت الأباجورة الجانبية ثم انسحبت إلى غرفة نومها. كان عصام غاصًّا في نوم عميق مثل طفل هدّه يوم لعب. كيف لا وقد كان نهاره مليئا بالحركة مع ابنه أنس في لعب كرة القدم وكرة المضرب على جانب شاطئ التلة الذهبية غرب مدينة تمارة. لا يبدو منه سوى قفاه وشعره الأسود الذي أخذ لمعانا أكثر بعد استحمامه الأخير.

بدا لها سرير النوم غريبا كما وضعية نوم عصام والتي اتخذت شكلا عموديا ممددا، وكأنها هي التي تكلّفت بهذا التمدد، وكأنه واجب مقيد حتى في النوم. تخيّلت لتوّها زوجين نائمين ومفروض عليهما هذا التمدد المتجاور بشكل متواز. لم ترتح للفكرة ولا للحدس الذي يدفعها لهذا التفكير. تعلم أن استيقاظ عصام يكون باكرا. يختار الساعة السادسة صباحا دائما. ابتسمت لسُنّتِه التي اعتاد عليها في غسل أواني المطبخ وإعداد فطور الصباح وتهيئ آلة الغسيل بجعل ما يحتاج إلى غسل وتنظيف داخلها. آلة غسل الأواني قد لا تنفع بعض الأحيان خصوصا إذا ما تأخر وقت العشاء وتناول عصير أو مشروب ما مع تغلب تعب وعياء النهار على أفراد المنزل. يشعر أنه يسجل حيوية ومشاركة ديمقراطية في تدبير شؤون البيت على الأقل.

بيانه الذي يفصل فيه بين مجموعة من النقاشات والمواقف التي يؤجل حلها مجتمعيا، ما دام المجتمع مستمرا في الغوص في لا عدالة علاقة بين الرجل والمرأة. كم تبنى من مواقف وتصورات، لكنه لا يجد ملاءمة لعيشها داخل المجتمع، وحتى مع زوجته فإن انفلات الثقافة يجعل العادات والتقاليد مستمرة في مجموعة من السلوكات والأدوار. كيف سيجعل الحل لها؟ على الأقل في هذه المخرجات في مساعدة زوجته وفي القيام ببعض مهام البيت الأسري. لكن خضوع خروجه قبل استيقاظها، نظرا للمسافة التي تبعد الإقامة عن مقر العمل، يجعل اللقاء المتجدد بعض الأحيان حتى حلول المساء. كل الاتصالات الهاتفية وعبر الواتساب بالصوت أو بالصورة المرفقة معها، كل الرسائل المبعوثة، لا تنوب عن هذا المشهد وهذا الدفء الذي يشعر به كل منهما وهو بجانب الآخر فوق سريرهما.

تغلق قوس البنوة فيفتح مشرعا قوس الحياة الزوجية. نظرت إلى بدلتها قبل النوم فارتأت أن تغيرها بما هو أنعم وأطول وأفضل. كان ملبوسها ثوبا رقيقا بلونه الوردي الشفاف. ربما كان لون إغراء أجّل سياقه، ففكرت في ارتداء بدلة قطنية حمراء تغطي الأطراف، وربما تضع جوارب لرجليها. لا تدري سر الاختيار، لكن ما تعلمه هو أنها استحسنت النوم فوق الأريكة المقابلة للسرير. لماذا؟ لا جواب عندها الآن. جعلت ظهرها مقوسا وأطرافها مشدودة إلى جذعها. شدت الساقين بإحكام نحو بطنها ثم التف الذراعان بعد ذلك حول الرأس.

في الصباح الباكر ازداد التفافها بعد أن جعل عصام غطاء دافئا على جسدها النائم. أجّل كل سؤال أو تساؤل. هل كانت مريضة ولم تخبره؟ هل هي دورتها الشهرية قبل أوانها؟ استغرب وذهب إلى طقسه اليومي الذي افتتحه هذا اليوم في هذا الصباح الباكر.

حينما اختارت صفاء إقامة السكن للأسرة مع زوجها عصام رأت محاسن الخدمات الموجودة فيها. كانت لجنة تسيير للإقامة السكنية مُشَكّلة من عنصرين مهمين. أحدهما صاحب المشروع ومؤسِّسه، والذي استثمر أمواله ببلده المغرب، بعد أن عاش لثلاثة عقود في بلاد المهجر واستطاع توفير رأسمال وأرباح تجارة كلّلها بتقاعد اختياري منها، خصوصا وأنه يعيش مع زوجته فقط حيث لم يكتب له أن يرزق بأولاد. سحره الحنين مثلما سحره العيش الأنيق والمنظم في تلك المدينة الألمانية الصغيرة فرايبورغ، هناك. أما الثاني، فهو أحد المقيمين كذلك، والممتلك للواجهة التجارية الخارجية للإقامة، كان فاعلا جمعويا في مجال البيئة ورجل أعمال ناجح في صفقاته ومشاريعه. وكأنه اختار استقرارا من نوع آخر هو كذلك، وجده في تعرفه على مالك الإقامة ومناقشته لما يريد تحقيقه فيها.

هكذا جاء التجاور، ومن صدفه كذلك أن ملفا لمشروع بيئي خاص بالإقامة كان قد وضع فوق مكتب السيد عصام الوافي الذي أصبح مكلفا حينها بعد انتقاله من مدينة الصويرة إلى مديرية الوزارة في المجال البيئي والأفكار المتجددة فيه بالعاصمة الرباط. مديرية أرادت للعاصمة الرباط ولمحيطها

ومدارها أن تكون نموذجا متطورا لسياسة الدولة في المجال وصورة مواكبة لسياسة الدولة وتقاريرها البيئية المعاصرة والمتميزة. طبعا هي ملفات تنتقى وتدرس وتعرض على المسؤولين ليروا مدى توافقها مع أهداف الوزارة وما يخدم فكرة الحزام الأخضر والرعاية السامية لمثل هذه المشاريع. ستكون التغطية الإعلامية التي حظيت بها الإقامة من طرف القنوات التلفزية واللقاءات الإذاعية خير إشعاع لمشروع توافق وتجاور لأطر وزارة الفلاحة مع الفاعلين الجمعويين والمستثمرين الأجانب في إنجازه.

ثلثا مساحة الإقامة مجالات خضراء تتخللهما بنايات سكنية ومرافق للخدمة. امتلك السيد امحمدي مهدي، الفاعل الجمعوي سابقا، الواجهة التجارية الخارجية للإقامة إلى جانب سكن خلفها. ويقضي عقد الاستغلال بتوفير خدمات أساسية طول السنة لكل العمارات والشقق، وحتى الأثمنة بالمقارنة مع الحي والمدينة فهي تفضيلية وتشجيعية في الاقتناء لجل المواد تقريبا.

يسهر الإثنان على التنسيق مع شركة النظافة واستخلاص الواجبات الشهرية للكهرباء والماء وغيرها. تجهيزات تميز البلاستيك عن الورق عن المعادن عن مواد التغذية التي تخصص لها أماكن في التخزين والاعتصار والتوظيف في إحياء التربة وإغناء النباتات والأشجار... ثقافة التسميد الجديدة أو compostage كما ينطقها الجل.

كل هذه الخدمات حققت الصيت والحظوة في آن، في اختيار الإقامة "إقامة الأضواء"، دون غيرها. وسيكون المناخ النفسي والمعيشي اليومي لكل أسرة خصوصا لأسرة السيد الوافي وزوجته صفاء، ملائما ومنسجما مع ثقافة مواكبة لتكوينهما الأكاديمي والعلمي والمهني. ملاءمة جعلت السيد عصام يشعر وكأنه يحقق كومونته التي يحلم بها أو جزيرته التي سيلجا إليها بعيدا عن بيئة لوثتها السياسات قبل أن تلوثها الصناعات وادخنة السيارات.

لماذا قد تستحضر صفاء مثل هذا الحكي؟ تبتسم دواخلها وتشعر بأنها اكتسبت هوية شخصية جديدة مع هذا المناخ وهذا السكن الجديد. حتى من عملها فقد أدخلت عليه ترتيبات وتنظيما جديدا استفادته من فلسفة العيش الجماعي داخل إقامة الأضواء. لكنها وهي تراجع في نصف ساعة تقريبا كل ما سبق، ارتعدت أطرافها وارتعبت نفسيتها خوفا من السقوط من حافة الأريكة. فتحت فاهها قبل عينيها مستغربة. تدْرك أنها هي التي اختارت النوم في هذه الوضعية دون سريرها العريض والمريح. أثقلها استفهام محتمل حول رد فعل عصام وتفسيره لاختيارها هذا. كان قد خرج للتو من المنزل، وربما صوت الباب المقفل هو الذي اخترق ذهنها في مراحل استيقاظها المستغرق لنصف ساعة تقريبا.

كانت الساعة تشير فوق الأباجورة إلى السابعة إلا خمس دقائق. شفع لها الغطاء الذي أذهب القشعريرة عن جسدها وأشعرها

بدفء في عالمها الوجداني والمشاعري، دفء فعلا كان رصيد زواج جميل وطفل وديع.

ـ بالصحة نومة المخيم !

رسالة نصية توصلت بها صفاء في العاشرة صباحا.

ـ الله يعطيك الصحة. قلتُ أستريح فوق الأريكة قبل الخلود إلى النوم في السرير فوجدتُني في الصباح كما تركتَني.

اعتبرت ردها مقبولا وأكثر إقناعا حتى بالنسبة لذاتها. استطاعت أن تفسر به غرابة ما وقع رغم كونها تعلم أنها من اختارت الوضعية والموقع والفعل. عادت للعمل ولتفحص الملفات الجديدة لمشاريع استيراد بذور جديدة خاصة بزراعة البطاطس والبطيخ الاحمر. راجعت التقارير المرفقة والمرسلة من المديرية، كذا المذكرات التوجيهية المتصدرة للملف. جعلت خطًّا تحت عبارة الجهات المسؤولة في التقرير ورتّبت جدولة لبدء التحاليل الجديدة: "ملف البطاطس والبطيخ الأحمر".

...

يمتلك عباس السالمي من أسرار الحياة ما يمكنه من بناء طبقات نفسية لمجتمع بأكمله. يعلم مخزون هذا الكلام كلما راجع ذاته في جلسات اختلائه السرمدية والمختارة. طفولته التي أورثته الرؤية من أعلى، وعدم الثقة في ما هو أسفل. أسرته التي كانت تعيش على الترحال بين جبال الأطلس المتوسط والأطلس الكبير، وبين سفوح القمم وضفاف الأنهار ومنبسطات الهضاب. أسرة أمازيغية تسترها الخيام المنصوبة وظلالها المتموجة مع رحلة الشمس أو ضد تيار الرياح التي قد تكون قارسة في فصل الشتاء مثلما تكون حموما في فصل الصيف. وتكون الخيمة الكبيرة محور رحى حركة النهار الطويل الذي يحتويه الليل ليسكن الجميع في حضنه المجهول. كما يكون الصمت سيد هذا الليل وأسده الذي لا يزأر.

سمع الحكايات عن الغابات والحيوانات المتوحشة، لكنه يبتسم لها أكثر، خصوصا وأنها واضحة ومنطقية وصريحة في معادلاتها. ما كان يخيفه من التحذيرات والروايات معها هو الكائن البشري. لم تأمن الأسرة جانبا كلما اقتربت من جماعة مستقرة أو عابرة:

قد يستطيع الذئب النيل من شاة شاردة عن القطيع، لكن الإنسان قد يستولي على كل هذا القطيع !

ما سجلته الذاكرة ختمته تجربة قاسية عاشها في طفولته، وهو ابن الثمان سنين، ثالث الأبناء وخامس الأولاد. خرج في تجربة رعي منفرد وقاد قطيعه المكون من تسعة رؤوس من الماشية. شاة حامل وخرفان في حيويتها، كان عباس هو عاشرهم المكمل للعب والغناء والأصوات والقفز. أمِن الأرضية التي يشكلها بساط رطب نما عشبه الأخضر بعد أن جفت بحيرته التي تشكل عينًا دامعة للغابة المحيطة وللجبال المطلة على مدارها. يتذكرها كيف كانت مجالا للعوم ولنزول الحيوانات لها للارتواء، ولاستغلال أمه وأختيه لضفافها من أجل استحمام أو غسل لأثواب وأغطية. الآن وقد أصبحت يابسة منبثقة من ماء كأنها جزيرة أنتجتها الطبيعة وسط أشجار سامقة، راح عباس يكتبها قصيدة أمازيغية فطرية بحواسه وعينيه خصوصا. يركض حتى بحبوحتها. تحط رجلاه بخطوات متلاعبة فوق برك متفرقة وصغيرة هنا وهناك، في قفزات متراشة مع الفضاء. يناديه صوت داخلي أن أُدْخل غمار الأجمة وابْحث عن فواكه عجيبة وظلال ناعمة !

يرفع عينيه للسماء فيجد الشمس موافقة على مثل هذا الاقتراح. كانت الماشية قد تفرقت هي الأخرى في البحث عن ظلال واقية لقيلولة مرغوبة. ليته امتلك نايا وإتقانا لعزفه مثل أخيه صالح.

عاد من مغامرة الغابة فلم يجد من قطيعه سوى الشاة الحامل. ربما عرفت كيف تتقي المتلصصين على رعيها، في حين ذهبت العصابة بما رافقها في رحلة عباس لأول يوم له في الرعي المستقل والمنفرد. بكى وسُمِع صراخه من بعيد. نهره الأب ونهاه عن ذلك: الرجال لا يبكون يا عباس!

حمله لأقرب مركز درك من أجل تقديم الشكاية. اضطرا لقضاء ليلتهما تلك في باب المركز في انتظار تدوين شكايتهما وتوثيقها وتوقيتها ونوعها. كانت الظاهرة قد استفحلت على صعيد البلاد بأكملها، وكان رعاة الأنعام قد صعّدوا من شكاياتهم وعددها. لم ير عباس أي غريب في جنبات البحيرة، ولم تبد له من ظلال أو حركات. بقيت الشكاية ضد مجهول، لكن تسجيل اسمه في محضر الدرك وعمره ولغة تصريحه، جعل المصادفة مع حملة محاربة الأمية وعدم التمدرس أو الانقطاع عنه. كانت السياسة تعالج كذلك وضعية القبائل الرحل وواقع التعليم في أعالي الجبال أو في امتداد الصحاري.

إلزاميا، سيسجل عباس لأجل التمدرس، وسيستفيد من سياسة إيواء وداخلية يقيم فيها مرفقة مع مجموعة مدارس مركزية. لكن توصية أمه وأبيه وأسرته وهو يحمل حنينه وزاده من دفئها مع دموعه الساخنة يوم الفراق والذهاب للتمدرس بعيدا عن الجميع كانت هي الحذر من الغريب، من الذئب الحقيقي (أوشن)، والذي هو: الإنسان !

عاش مع هذه المفارقة، خصوصا وأن جرح فقدانه لقطيعه الذي كسر تجربته في النضج والرشد المبكر، بقي مهلهلا داخل بنيانه

الداخلي، مقويا لصلابته الخارجية كصبار امتلك من الأشواك ما يحمي به لزُوجته الداخلية. لا يثق في المحيط ولا في تحولات الطقس ولا في الشمس أو المطر. يجعل سقايته بما يحقق حاجته دون ضعف خارجي.

أصبح عباس من المتفوقين دراسيا داخل مجموعته، مستفيدا من منحة الاستمرار في الدراسة بمدينة ميدلت ثم أزرو وبعدها العاصمة الرباط. كانت اللغتان العربية والفرنسية، وبعدهما الانجليزية، فضاءات كونية جديدة وسّعت من خياله وعقله وسافر عبرها إلى عوالم واكتسب معالم شخصية أكبر في بنيته وهيأته. لكن روحه الأمازيغية تحن للبحيرة التي تتحول عبر الفصول فتغير لوحاتها البرمائية والكائناتية.

في مدينة الرباط، ساعده التفوق العلمي في مادة الرياضيات على الخصوص، على التألق في التكوين والتخرج والعمل بمدينة مكناس أولا ثم العاصمة الرباط. لكن الحذاء الذي يطرق الشوارع المزلجة أو المداخل الرخامية لا يطربه بالشكل الذي تطربه به أصوات جبال الأطلس ومنحدرات السفوح والهضاب. كيف لطائر تربى على التحليق أن يسجن بين بنايات منظمة ومجتمع عاصمةٍ أصبح نمطيا في رتابته وسلوكه الإداري؟

شرخ الذات بدأ علاجه مع وتريات "رْويشة" و"مَغْني"- أشهر أسماء المغنيين الأمازيغ -، وتماويت وصوتيات الأطلس وتعالي

نجاة عتابو[2] في أغانيها... وكان إكسير الروح كما يسميه. بدأ مع الجعة التي استلذ برودتها وسقيها ومقصفها وإطفاءها لظمئه، وما يرافق مقاصف حانات العاصمة الإسماعيلية مكناس ثم العاصمة الإدارية الرباط، وما تفتحه من آفاق ونقاشات، وما تشكله من علاقات ومواقف وأشكال وعي جديدة. وبين الجروح العديدة والمتنوعة للأفندة اختار ما يعالج به جروحه الوجودية والثقافية. تنامى الوعي بالقضية الأمازيغية مع تنامي التفاعل مع قضاياها. تعلم تفيناغ ودعا إلى إعادة كتابة التاريخ بالحروف الأمازيغية لعلها تنبعث معها الذاكرة المخزونة والشخصية المطمورة في كيان الإنسان.

استغرقت سعاد المغراوي مدة من الزمن في العلاقة المنفتحة معه لكي تعتصر بعضا من هذه الشخصية، لكي تكتب عنها بلغة فرنسية كانت سلاحها في مواجهة بياض الصفحات. تخط في أجندة جديدة، بعدما ملأت التي قبلها:

(ـ أتساءل: لماذا اختارني واختار الاستمرار معي في العلاقة كل هذه المدة، رغم التباينات والتوترات؟

وقد يتساءل عباس في همسه الدفين لماذا سعاد دون غيرها من النساء والفتيات اللواتي تعرّف عليهن؟

كنت كلما دندنت لحنا توسّلني في أن أغنيّ له أغنية أمازيغية. كان يتوسد فخذي ويذهب في إغماض لعينيه. تصبح لغته في

---

[2] كلها أسماء فنانين مغاربة تمتد أغنياتهم من الثقافة واللغة الأمازيغية لكي تنتشر طربا وثقافة وفنا في ربوع دوائر العيش والحياة المحلية والإقليمية والوطنية والعالمية.

التواصل بأنامله التي تقبض على طرف فخذي أو ساقي أو ذراعي. أستشعر طلبه المزيدَ وحاجته لسرمدية اللحظة. أجعله ينام كطفل صغير كي أنسلّ محدثة هدوء الزمن من زوبعة الحياة، زوبعة الإنسان. وكأن الرحم هو الخلود الكامل ومجاله.

أستفسره عن السر وراء عدم ذهابه لجبال الأطلس من أجل زيارة أهله، فيجيبني بحاجته لمزيد من الاجتراح داخل المدينة:

ـ ربما أجد فيها قبري ! لن أرتاح هناك، ولا راحة لي إلا في حضورك وفي صوت غنائك. أعيش مفصولا بين زمنين. ليل يدْلَهّم مع غيابك، ونهار يشرق بحضورك. انتِ طبيعتي وثقافتي، شمسي وقمري. كلاهما امتداد لبحيرة عينيك.

تحولتُ معه لجمع ونظم شعر بالأمازيغية. أنهل من الأدب الفرنسي والعربي، ومما تُرجم إلى لغتيهما اللتين أتقنهما، وأعكس صور روحي في هذا التغذي الجديد.

كيف أُصبح ثقافته بالشكل الذي يريدني عليه؟ هل هو استلاب أم ارتواء مطلوب من كلينا؟

ـ لماذا لا تخرج من مدينة الرباط؟

ـ لماذا؟

ـ انتقلْ بوظيفتك لمدينة أخرى: إفران، أزرو، ميدلت؟ أو غيرها.

ينفث سيجارته، ما يجعل جحوظا نسبيا في عينيه رغم الدخان الذي يحجب صفحة وجهه. يسوي ياقة قميصه الأبيض. يعيد

طيّ ربطة عنقه التي يجعلها غالبا فوق كرسي بجانبه في المقهى كلما انتهى من مهام العمل الإداري واجتماعاته. أنتظر جوابه. سلاحي ابتسامة حب توقع لصبر مرجو في هذا الانتظار. ما يشفع له هو نباهة حواسه مع كل ما أقول وبحثه عن أقصى اجتهاد مُرضٍ في كل جواب. كذلك ابتساماته التي تسجلها كل ملامحه فتظهر لوحة تمحي كل عتمة وكل ضبابية لتوقع إشراقة ربيع في محياه. على الأقل في حضرتي أنا سعاد المغراوي.

لكن هذا السؤال جعله يسوي لي خصلات من شعري، كانت منفلتة تغنجا عفويا فوق عيني اليمنى. ابتسم من جديد:

ـ لون عينيك، انتظاري لك قرب محطة القطار، هذه المرافق التي تحتضننا في كل لقاء متجدد، هي هذه مدينة الرباط. لا أستطيع استنشاق هواء حرية خارجها رغم الرطوبة التي تطبع مناخها الشاطئي. ذلك المغرب العميق الذي شكلته عبارات السياسة لا أجده إلا في روحي وبواطن وجداني، لا خارجها. أخشاها ان تكون عُقدة بدل هذا الشعور بالتحرر. لهذا لا أستطيع الانفصال عن حياة المدينة. هي مجال حياتي وأنت طبيعتي وثقافتي داخلها.

ـ من جديد؟ ! أنا طبيعتك وثقافتك؟

ـ نعم، نعم. لن أشكل فكرا آخر غير ما قلتُه لك. أعد الأمر بقياس رياضي فلا أجد سوى هذا الكون الذي أنا فيه معك.

ـ أحترق بتعبيرك لأنني كلما عدت إلى مكناس أو بوفكران فكرت في ما أسمعه منك وأشاركك إياه).

حينما تعاود سعاد كل هذه الحوارات، وهي تكتب أو تتذكر، تتأمل ذاتها وتغيرات شخصيتها وحياتها الجديدة. كيف آثرت فردانية مشتهاة في شقتها بمدينة مكناس، وكيف جعلت المسافة بينها وبين ارتباطاتها الاجتماعية والأسرية. تعي بأن تحولا كبيرا وقع في شخصيتها. بين تجربة زواجها الأول والمرحلة الانتقالية التي عاشتها مع ذاتها وعالمها الخاص، ها هي الآن كالطائر المتحرر من قفصه، تشرع أبواب قلعتها الوجدانية لأشعة شمس جديدة، وروح جديدة.

قد تغبطها صديقاتها في كل استنتاج. تتطلعن إلى جرعة حرية كهواء جديد تستنشقنه وهن في حاجة إليه. ليته كان قارورة أوكسجين تباع فتحقق المطلوب. وقد تعبّر إحداهن عن ذلك الاختناق اليومي بين واجبات العمل والمهنة وواجبات الدور الأنثوي داخل المنزل، سواء مع أسرة الأبوين أو مع الحياة الزوجية والأولاد. لكنهن تعلمن بأن الحرية والحب، عنصران لا يتشكلان أو يتحققان بالتصنع أو الاصطناع والتمثيل. وتبقى زميلات العمل أو النادي الرياضي في مسافة عن هذه التغيرات الجديدة.

تستحضر ما قالته لها الطبيبة كوثر بنيس حول خصوصية لون عينيها. تقارنها كل مرة مع استنتاجات عباس وتعبيره وغوصه وهو ينظر إليها:

تعلمين ! ربما عيناك هما سبب تورطي في غرامك. تمتلكين بهما عمق بحيرات جبال الأطلس وصفاء منابعها. عيناك تعكسان ذلك اللون البني الفاتح والخالص.

- بل هو اللون العسلي يا عباس أو بوصف الطبيبة هما بلون لوزي فاتح.

- لا. هو لون بني فاتح في ما أراه وأسبح فيه. ينعكس مع ألوان أوراق أشجار الغاب وهي تلقي بظلالها بعيدا عن أشعة الشمس اللاهبة. تدفئين وتنعشين وتروحين الآخر بهما. لذلك ينظر لك الناس ويسترقون وميضا من نظرك إليهم.

ها هي قد وجدت الشاعر الذي يحقق نبوءة الطبيبة. ها هي قد أصبحت متحملة لمسؤولية جمالية ألقتهما على عاتقها عيناها اللوزيتان. ستصبح مضطرة وصاحبة واجب ومسؤولية في توفيرها لكل مرء حقه في النظر إليها وملء حاجته لبحير عينيها... لن تتمم استنتاجاتها مع هذا الشعور. تخاف أن يُحدث اضطرابات وتشويشا على ذهنها ويوميها المنفلت في التواصل مع الآخرين.

تبحث سعاد كل مرة عن الثقافة التي يظمأ لها عباس. تؤيد دائما فكرة القيام باحتفالات فنية، بحضور نساء العشيرة والقبيلة، بسيادة الصوت الأمازيغي وإيقاعه وتشكلاته فيها. ترقص، تتباهى، تسافر بتلابيب فساتينها الملونة وشعرها المنسدل الذي ينطلق مروحية هوائية أو شعر حصان أو فرس مرافقة في فروسية. تختار أن تكون حافية القدمين، وخلخالها المذهب

الذي يستدير على مدار كعبها لامعا فوق لون حناء داكن يفترش قدمين منطلقتين في إيقاع يدق على صدر الأرض. وكأن هذه الأرض تختزن أسرار هذا الوجود البشري وأسرار هذا التوهج الأنثوي. هي مؤمنة أنها في يوم ما ستفك خيوط ورموز كل شيء، ما دامت أنثى، ما دامت تحفر عن الرمز والشكل واللون والتعبير والتوظيف، سواء في رسم الزرابي أو تزيين الفساتين أو وشم الجسد او لوحة رقص وغناء... إيقاع يدق صدر الأرض ويتعالى معه دف البندير كما وتيرة الإنشاد والغناء:

ـ أنا شلحة، واللي ما بغاني نعطيه دكة !

وتضحك وترقص، والكل يتابع ويلاحظ، وفي لحظات قد تكون العيون المحيطة مختلسة تعبيرا مغايرا للفرح والعفوية، فتنتبه لكل ذلك وتستشعر ما هو غير عاديٍ في السلوك لتترك للحدس مشوار اختراقه وتأويله. فقد تتبادل العيون شرودا خارج هذا المناخ الحياتي الجميل والسعيد، فتشعر حينها بأن هناك شقاء داخليا تخبئه الأنفس رغم أنه عمومة أو قرابة حاضرة. للغد، ستلتجئ إلى فردانيتها وشرفتها، بعده، ربما ستسافر إلى ذلك الذي أثث طبيعتها وثقافتها الجديدتين: عباس السالمي.

...

يوقظها منبه من عز النوم كصرخة أو إنذار:

(ـ البنت كبرت، لماذا لا نبحث ونبعثها عند أهلها الحقيقيين.)

صوت أبيها الذي يقرع مسامعها كجرس متجدد في الوعي، يحفر في الذاكرة حتى لا تطمر العبارة. كان عمرها حينئذ ثلاث عشرة سنة. مَيزت همس أبيها لأمها حينها. وبما أنها وحيدتهما، فلم تكن هناك بنت أخرى معنية بمثل هذا الكلام.

-(- أخاف عليها من أبناء عمومتها، أولاد إخوتي وأخواتي. يوما ما يعيرونها باللقيطة أو الغريبة أو ما شابه هذه العبارات والكلمات.)

" فعلا سمعتُ هذا الحوار ومضمونه. لم أستوعبه في حقيقته، كما أنني لم أقبل مضمونه. ربما يكون توهيما وتوهما. لا أستطيع تخيّل أنني لست ابنتهما. أقبل اللعب بكل هذا ومعه، صفتي الطفولية. لكن الربت إذا تحوّل مع هذا اللعب إلى لكز وطعن وجرح، تغير معنى كل شيء معه، كنهار جديد يرفض أن يكون بدون شمس تشرق فيه. ظللتُ في هروب من وجه الحقيقة الذي يحمله، ومن كل ظل قد يحفر خنادقه في أعماق روحي ووجداني، يوما ما سيخرج كغول مكتمل ومستعد للالتهام والفتك. آثرت البقاء في ألاعيبي النفسية التي تقيني السقوط في حفر لا أرجوها ولا أحبها وربما هي ثقب أوزون يهدد كياني الحالي.

بدون جنة أعيش الآن. بعدما التقيت السيدة صفاء بمدينة الرباط، كبُر قوسُ الاستفهام: هل يخلق الله من الشبه أربعين؟ لاحظت أن تلك السيدة لها علاقة بما جعلني مستغربة به في النظر إليّ، وفي التعامل معي يوم مات والدي، ويوم هَزّبتني والدتي - بهذه العبارة - من مواجهة شقاوة الزمن والحقيقة،

كشبل استعدت الضباع لافتراسه في رقصة دائرية اكتمل بدرها في التحقق. ربما كنت المدللة والمستفيدة من أموال والدي، لكن الأمر بالنسبة إليهم قد حان وقته لكي ينتزع كل شيء مني، من أجل إرجاع النهر لمجراه الذي يرونه مناسبا. مجرى العائلة وأصولها.

هل أتمم التحليل والتخمين والاستنتاج؟ قد لا أستطيع ذلك. اختلطت عليّ الأمور بين تحقيق الحب وتحدياته، وبين تصفية بحيرة هذه الذات وهذه الروح التي تعيش في كونها ومدارها."

...

(لم تكن الطريق التي اتخذها الثلاثة ملتوية ولا منحدرة. وحيث ارتفاع قمة الجبل يعرف صفاءً في ألوانه وحركاته، بدا لهم ذلك الطفل الحامل لحمَل صغير في حضن يديه. من عينيه تبدو رغبة في التحية والتعرف على المجهول. تجاوزته السيارة بعشرات الأمتار. نزل الثلاثة متأملين لأشجار الغاب وقمم المرتفعات. قنينة ماء وعلبة يوغورت وقد أهداهما صاحب الجلباب الأزرق للطفل الصغير. كان السائق في بدلة رياضية أنيقة، وثالثهما في لباس بني فاتح.

كان عُمَر في الخامسة والنصف من عمْره. وعدَه الأهل بأنه سيدخل للتعلم في المدرسة السنة المقبلة بعد انتهاء فصل الصيف. ظنّ أن هؤلاء الرجال الثلاثة قد جاؤوا لتبشيره بما ينتظره، وربما أنهم جاؤوا للقاء أهله من أجل إعداد انتقاله للتمدرس بأقرب مركز للتعليم. ربما تكون تلك البناية المتموقعة في سفح الجبل، فوق منبسط أخضر على ضفاف النهر هي مدرسته المستقبلية. ما تزال غريبة عنه.

كان حلمه أن يستحم ويسبح في مفترش ذلك الوادي الذي يجاورها والذي تنعم مياهه بدفء وهدهدة خرير.

تناول الهدية من صاحب الجلباب. بدت صفحة كفه طفولة بريئة. لو كان بجانب خيمة الأهل لوهب بالمثل للثلاثة لبَنا أو جبنا أو كأس شاي تجود به الأم على الضيوف الذين اعتبرهم ضيوفه. بدا الخط المستقيم والمحفور حتى مفرق الرسغين!

ـ يداك جميلتان. أنت رجل قوي البنية. تبارك الله عليك.

تطلع عمر للكلام المادح والصادر عن هذا الرجل الذي لمعت ناب فضية مع ضحكته وابتسامته الغليظة. ابتسم عمر الذي أعجبته كلمات المدح في أن أصبح رجلا الآن أمام أعين هؤلاء الرجال الثلاثة، تناول جرعات من اليوغورت بطعم الكرز. كان لذيذا. وبينما هو في تبادل حديث حول الغابة والحمَل والاسم، بما أوتي من لغة تخاطب وتحاور، شعُر بدوخة خفيفة، سرعان ما جعلته يضع الحمَل جانبا ويحاول الاسترخاء متكئا على جذع شجرة أرز كبيرة.

ـ ما بك يا ولد؟

ـ دوخة في الرأس!

ـ خذ هذا الدواء. الحمد لله أننا توقفنا للاستراحة والتقيناك هنا. هي ضربة شمس وستمر).

...

قرأ عباس السالمي هذه الفقرات الأولى من أوراق مُرتبة، وجلها مكتوبة بحبر جاف أسود. كانت مرقمة في الجانب الأيسر أعلى الصفحات مع خط مائل في رسم كل رقم جديد. كان الملف الذي تحتويه من مطبوع ملون لمنتدى أول للاستثمار والسياحة لمغاربة العالم، والذي نظم بالمركب الإداري والثقافي بمندوبية الأوقاف في نونبر سنة 2019 بمدينة مكناس. علامات الإشهار للجهات المانحة وقد ملأت مداره.

لكن صاحب الملف لم يُعرف بعدُ. فقبل يومين من لحظته هذه في فتح الملف وقراءة هذه الفقرات، كان عباس قد تأخر في جلسته بالحانة خلف فندق باليما. أغلقت الباب وبقي هو وثلاثة من الزبائن متهمين في تفريغ قنيناتهم. وبينما كان مستخدمو الحانة ينظفون مرافقها وطاولاتها وكراسيها، عثر أحدهم على هذا الملف فوق كرسي مهمل خلف طاولة في زاوية من الفضاء. يتذكر أن شخصا ما كان جالسا هناك، وأنه كل مرة كان ينظر لساعته اليدوية المعدنية اللامعة. ربما كان توقيت سفر، توقيت قطار. ربما كان اقتراب موعد مستعجل ومهم... نهض فجأة وبسرعة بعد أن أدى ثمن ما شربه من قنينات، انصرف تاركا وراءه هذا الملف الذي لم ترغب الساقية في تحمل مسؤوليته كأمانة. كفاها مشاكل سابقة مشابهة لهذه الوضعية. كان الثلاثة الآخرون في استعداد للذهاب لحفلة خاصة. وهم معروفون بتتبع سباق الخيل ورهاناته.

ـ أنت العاشق للحرف والكتاب يا عباس. خذْ هذا الملف معك حتى يسأل عنه صاحبه.

كان صوت الساقية المبحوح "قُدّاسَ" أوامر لجل الزبائن، وللمقربين منها، حوارا وخدمة وعلاقة. تأملّها في ثمالة وانتشاء مكتملين. ابتسم لها ولبى وانحنى تلبية. قد لا يتكلم حينذاك، لكنها تدرك شخصيته وطبيعته وأسلوبه الخاص. جل الزبائن عندها هي على دراية بطقوسهم وتحولاتهم وما يليق بهم نبرة وكلاما وتعاملا.

وكأنها لعبة جديدة. قبِل المقترح دون تردد. حين انصرف من الحانة، تأبّط الملف مع جريدته باللغة الفرنسية التي جعل لها رفقة أوراق وملف داخل مطويته الكبيرة: رافق الحرفُ الحرفَ.

كانت ليلة نهاية الأسبوع، ليلة سبت، تلاها يوم أحد نالت الكلمات المسهّمة حظها من توقيت وعشق السيد عباس السالمي لها. وها هو في صباح يوم الاثنين هذا، وقبل ذهابه إلى العمل، وبعد فنجان قهوته السوداء الموقظة والمنبهة والتي تسبق وجبة فطوره غالب الأحيان، يطل على الفقرات الأولى من الملف، وكأنها إطلالة على طفولته، وكأنه يعيش المقروء في شخصه من خلال ما بدأ قراءته له. أثار الأمر فضولا أكبر واهتماما أكثر، وتصميما على الاعتناء بالملف وأوراقه، في انتظار ظهور صاحبه للوجود من جديد. ربما خلال المساء سيعرج على ساقية الحانة لكي تنبئه بالجديد.

ـ هل ظهر صاحب الملف؟

ـ لم يعد له أثر.

ـ طيب، سأحتفظ به إلى حين ظهوره. عندك رقم هاتفي. اتصلي بي حينذاك.

أثاره منذ البداية غلاف الملف وموقع الندوة. فقد يساعده ذلك على معرفة صاحبه طبعا. لكن، في انتظار ظهوره تابع فضول الاطلاع والقراءة لصفحاته.

...

يندهش السيد عباس السالمي لما يراه من أوراق مكتوبة أو مرقونة داخل هذا الملف الذي أصبح يرافقه صباح مساء إلى أن يظهر صاحبه. فضّل التأني في تصفّحه. وكأنه بمجرد الانتهاء من قراءته سينتزعه منه صاحبه لوما وتأنيبا. بين صفحة وأخرى كانت مسافة السفر الزمني والذهني، وكان عالم سحبه المتصاعدة من دخان سجائره المشتعلة. تذكّر عالم طفولته ويباب بحيرته وعصابة غنمه. رأى في هذا الطفل داخل القصة الأولى المقروءة ذاتَه وصغره. استشعر حدوث الواقعة له، وتساءل:

ماذا لو كنت أنا من تعرّض لعملية الاختطاف هذه؟

في صباح اليوم الرابع، هاتف سعاد حينما لاحظ أن الملف يحتوي على رسائل وطلبات موجهة إلى مؤسسات معنية برعاية الطفولة وحقوق الطفل وديوان المظالم وكتابة إدارة البرلمان. لاحظ كذلك أنها موقعة باسم وخاتم السيد عزيز الحمدوشي، محام بهيئة مكناس.

ـ صباح النور أيتها الحمامة الهاربة من ليلة فرحها.

ـ صباح النور. كيف حالك؟

ـ نحمده ونشكره. وأنت؟

ـ الحمد لله. أراك بكّرتَ في الاتصال هذا اليوم. هل من جديد مستعجل في النقاش أو الإخبار؟

ـ في الحقيقة، أمامي ملف نسيه أحد المحامين من مكناس هنا بالرباط. أريدك أن تعرفي عنه أو تتواصلي معه لكي أتمكن من تسليمه أوراقه.

ـ وما الجديد فيها؟ وثائق ردهات المحاكم والإدارات نجدها تستعمل عند بائعي الفواكه اليابسة. ربما يكون قد تخلّص منها.

ـ الغالب أنه قد نسيها فقط. تبدو أهميتها من بعض التواريخ والمراسلات التي ترافقها.

ـ على العموم، سآتي للعاصمة الرباط يوم السبت المقبل للقاء السيدة صفاء. حينها يمكنك تسليمي الملف لكي أوصله لصاحبه أمانة.

ـ ما الجديد في تواصلكما أنت والسيدة صفاء؟ لم نتحدث عن هذا الموضوع بعد. اعتبرتُه صدفة في كل شيء.

ـ هناك خيوط مبهمة لا أستعجل الحديث عنها. يلزمني الوقت والتوضيح أكثر. ما برنامجك هذا السبت المقبل؟

ـ لا جديد يذكر. أنا هنا، وإن كان هناك حنين لجبل العياشي ورحاب الأطلس. قرأت قصة لطفل داخل ملف المحامي استشعرتني بالخوف على طفولتي التي ابتعدتُ عنها أكثر اليوم.

ـ ممّ هو هذا الخوف؟

قطبت حاجبيها مستغربة. تذكرت أنه قليلا ما يتوجس لعواطف ماضية أو نقاط ضعف في شخصيته أو حياته. وتذكر هو بعد

بوحه لها بأنه استطاع أن يجعل هواجسه واقعا مرئيا وقابلا للتحليل والتشريح. فعلا كانت طفولته بهذه التهديدات وهذه الاحتمالات. وكأنها أفلام رعب تم استدعاؤه لعيش غمار أهوالها ومخاوفها.

...

توترات كبيرة رافقت السيد عزيز الحمدوشي خلال أيام هذا الأسبوع. بقيت الحلقة المفرغة حول مكان نسيانه وتضييعه لملفه بين إحدى الحانات أو على متن القطار... سيحتاج إلى تحيين جل أوراقه ووثائقه ومراسلاته. رجع إلى نسخة من الملف احتفظ بجل أوراقه فيها، وتأمل فيها متصفحا ما يمكنه أن يكون منفلتا أمنا وأمانة وسلامة فيها. لاحظ كما فعل من قبل أنها أدبيات ومراسلات لا تهم جلسات المحاكم بقدر ما تهم قضية اختطاف الأطفال وجريمة استغلالهم البشعة في معتقدات متخلفة. هكذا كان حكمه عليها. لكنه يعلم قيمتها رغم أنها نسخ لمثيلاتها يتوفر عليها هنا بمدينته مكناس. قضيته الحياتية التي أراد بها أن ينتصر لعدالة ويحارب ظلما حقيقيا، في غياب عدالة عمله داخل مهنة محاماة تضطره إلى الدفاع عن الظالم والمرافعة ضد المظلوم. هكذا يسحقه ضميره وهو يؤنبه كل حين. لا يجد مفرا من سياج الواقع الذي أنتجه كمحام. لكنه سيجعل حرية طائره الداخلي مع هذا الملف والقضايا الإنسانية التي يحتويها ويريد مناصرتها.

يتذكر كيف بدأ اهتمامه بها. فلقد كان صباحا عاديا وهادئا، يوم أحد من نهاية أسبوع من أسابيع العمل، في أيام خالية من كل مناسبة أو عيد قد يستغله الناس لزيارة ضريح القرية

المشهور. لكن ذلك الطرْق المبكر على باب المنزل والمتعدد والمتسارع، جعل أفراد الأسرة يفزعون لسببه. وقد تكون المناداة على السيد عزيز بصوت مسموع من خارج المنزل هي ما زادت أو خفّفت من كل ارتعاب في نفسية كل واحد من الأهل.

كان السيد عزيز ما يزال مسترخيا في فراشه. وكانت الأم تُعدّ وجبة الفطور سعيدة وفرحة بولدها المحامي الذي تفتخر به داخل قريتها. كانت إطلالتها من النافذة هي الأولى قبل أن تتابع فتح ابنها عزيز لباب المنزل محيّيا ومتسائلا عن طلب السي الجيلالي صاحب دكان الحي:

ـ السي عزيز، ساعدنا من فضلك في حلّ مشكلة وقعت في الجنان المرتفع فوق التلة. جنان الحاج عبدالقادر.

ـ ماذا وقع؟

ـ رافقني من فضلك. لا أريد الكلام بين الجدران. بعض سكان القرية تجمهروا ولم يعرفوا ما العمل فيما وقع؟

فعلا، عشرات الأفراد قد تجمهروا. سمع عبارات صادرة عنهم وقد بدت ظهورهم فقط حين صعوده مرتفع التلة: يا لطيف ـ سترك يا رب العالمين ـ اللهم إن هذا لمنكر...

كان المشهد مريعا. كان مسرح جريمة بشعة. لم يتخيل نفسه كممارس لمهنة المحاماة واقفا الآن أمام مشاهد حية. بين ردهات المحاكم والإدارات ومكتب المحاماة، كانت الأوراق والملفات بألوانها وأحجامها، وكانت الأحداث مسجلة ومكتوبة

أو مشهودا عليها. لكنه هنا أمام لون قانٍ وطري منسكبٍ في خطوط بين شجرة زيتون معمّرة وحفرة مستحدثة في الغالب. بقايا جمرٍ ترمّدَ ورائحة بخور غريبة التصقت بالمكان ولم تغادره وكأنها كبسولة فضائية غريبة.

ـ اسمح لي سي عزيز على إزعاجك هذا الصباح. لكن، كما ترى هي جريمة قتل وممارسة سحر خطيرة، وأردناك كعارف بالقانون كي تكون معنا. نخاف حين إبلاغ السلطة بما وقع أن يورّطونا في استجوابات واتهامات وتنقلات بين المدينة والقرية. ما العمل سي عزيز؟

اتصل السيد عزيز الحمدوشي بالدرك الملكي وبقائد الدائرة وشيخ المقدمين. اتصل كذلك بنائب وكيل الملك لدى محكمة الاستئناف بمكناس، وهو صديق له في الدراسة والحياة المهنية بالمدينة. اكتفى بالمشاهدة ودعوة المتجمهرين إلى البقاء بعيدا بمسافة وعدم لمس أي شيء. اقترب أمتارا قليلة رفقة عون سلطة سبق حضور السلطات الأعلى منه. كانت الحركات والتحركات والخطوات متميزة بقصرها وحدّتها. كان التفكير مركزا، ولأول مرة، كان الصمت سيد الكلام والمهيمن عليه في جل الوقت. فقد يحاسب أحدهم على كلمة أو جملة غامضة صادرة عنه.

حين عاد السيد عزيز لتدوين تفاصيل ما شاهد وجد صعوبة في الاستحضار داخل حروف وكلمات. تشكّلت غصة في حلقه وعاد به الزمن لرسالة شبابية حلم معها، بعمل حقوقي لحماية الأطفال من كل ظواهر الاستغلال والحرمان والظلم. وكان أكثر

ما أفزعه هنا في هذه الواقعة أن يكون ما وقع هو لطفل صغير أو طفلة صغيرة: جريمة قتل. وليس أي قتلٍ عاديٍ داخل عالم الجريمة البشع.

...

كان اللقاء بمقهى جديدٍ، بعيدٍ عن المركز. اتفقتا على جعله بينهما فقط ما أمكن. استطاعت السيدة صفاء آيت البهي أن تبرمج لابنها نشاطا رياضيا بإحدى ملاعب القرب على الساحل الأطلسي، وستليه رحلة استكشافية للمدينة العتيقة بسلا. إحدى الجمعيات الجديدة التي ارتأت المزاوجة بين تكوين الذات وتثقيف الوعي عند الإنسان، إنها جمعية الأفق للشباب. بينما الأستاذة سعاد المغراوي كانت قد أخبرت رفيقها بالبرنامج المرتقب وأجّلت كل التزام معه حتى تنتهي من لقائها مع صفاء.

ـ يمكنكِ أن تناديني بسعاد، وسأناديك بصفاء. هكذا نرفع تكلف المخاطبة والحوار حتى نرفع معهما الحواجز النفسية التي تعرقل الكلام. لا أُخفيك يا صفاء بأن تغيرات كثيرة عرفتها عاداتي اليومية منذ لقائنا الأول حتى الآن.

فيما سعاد تتكلم بدت على صفاء ابتسامة مؤكدة لما تسمع ومستحضرة لما تغير في عادات نومها وخلوتها وتأملاتها الفردية.

ـ لا أخفيك كذلك بأنني أقف أمام المرآة عارية إلا من لباسي التحتي، أنظر إلى سعاد الأخرى، شعرها، نظرتها، كتفيها، مرافقها، شاماتها... وكل مرة أرسم نفسي لوحة جديدة.

ـ تعلمين يا سعاد، يحتاج اللقاء مثل هذا إلى مواجهة البحر حتى نرد عليه تموجات نفسيتينا.

هكذا احتاجت صفاء لكي تبين أهمية موقع اللقاء والجلوس والحوار. كان البحر وما يزال بالنسبة لصفاء وجهة آمنة للتفكير واتخاذ القرارات. كان مرآة قرار الزواج من عصام، كذا قرار قبول الانتقال إلى الرباط...

هيّأت للغوص في أعماق هذا المجهول. فقد انتظرت نظيرتها القادمة من مدينة مكناس أمام بوابة محطة القطار أكدال. كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف صباحا. انطلقت بسيارتها في رفقة سعاد مخترقة شوارعَ وأزقة حتى إطلالتها على البحر واتخاذها لطريقه الساحلي. كانت جلسة منتزه سياحي مستوية مع رمال الشاطئ وبساط زرقة البحر الهادئة في معانقتها لرمل مبلل.

أُعجِبت سعاد كثيرا بذوق صفاء في اختيار المكان واللباس وبطريقة كلامها وخفتها في آن. كانت رشاقة أنثوية في ألوان زاهية شفافة وفاتحة. ثوب حريري وقميص أصفر فاتح يناسب بشرتها ولون شعرها الأسود المنسدل على مدار كتفيها. تسريحة تمتلك من الموضة كما من أصالة الجمال الأنثوي التقليدية وتجعل استدارة وجهها مشرقة مع سعة جفنين. تخيّلت جسدها مرتديا ما رأت ووصفت. احتاجت لكل هذه الدقة في الملاحظة، وللحذر في كل شيء. لم يكن يوما عاديا ولا لقاء عاديا كذلك. كان هذا اليوم بألف يوم، كل شيء كان غريبا

واستثنائيا. هذا اليوم قد تستبين فيه الحقيقة. وأية حقيقة هي؟ لم تدرك بعد بُعدها ولا حجمها.

هل كانت السيدة سعاد هي المشاكسة الوحيدة في دواخلها وحواسها وحركاتها؟ ماذا عن السيدة صفاء؟ ما الذي يروج في نظرتها ودواخلها هي الأخرى؟ ما الذي يختبئ وراء هدوئها الظاهر في التصرفات؟ مستحيل ألا تكون منفعلة أو متوترة. هكذا خمّنت سعاد. وإلا، لماذا قبلت باللقاء وقامت بالتواصل والاستجابة.

بدا نوع من التوتر المصاحب لسعاد مع ملاحظاتها وتساؤلاتها خصوصا وأن السيدة صفاء كانت هي المقتحمة للموضوع والمتسائلة:

ـ حدثيني عن سعاد أكثر. ربما أكتشف نفسي كذلك معك.

ابتسمت وهي قاذفة بجمر النار بين يدي السيدة سعاد، رغم أنها حروف وكلمات جارية على طرف لسانها. ماذا عن حِممها البركانية؟ لم تعد تُسلم بكل المعطيات الماضية. كتابة جديدة ضرورية لهذا الماضي خصوصا مع صفحاته المهترئة والخرقة والتي لم تلائم روحها في يوم من الأيام. التفتت إلى أمواج صغيرة مشاكسة لرمل الشاطئ. مدّت بصرها أكثر لكي تمتلئ باللون الأزرق وتهدئ دواخلها المنذرة بنبضات عميقة تريد أن تنفجر كبركان. لكنها استطاعت كما في جل مواقفها أن تتحكم فيها.

ـ يصعب عليّ أن أكلمك عن نفسي بهدوء. من أنا؟ من أكون؟ هل أنا أنتِ أم ماذا؟ أجدني أتفلسف داخل غموض وحيرة كبيرتين. بقدر شوقي للقائك والحوار معك بقدر غرقي اليوم في استغراب من لغة دواخلي: من تكون سعاد أمامك؟ أخاف أن ينهار كل ما تمثّلتُه وتثقّفتُ به وانبنيتُ به كذات وككيان وكامرأة وكسعاد. أن تكون سعاد غير سعاد، غيري أنا؟ أخطر اغتراب وانسلاخ سيهوي بالنفس وبنيانها إلى قاع سحيق بدون قعر، بدون توازن منشود.

ـ طيب يا سعاد، لا تقلقي ولا توتري نفسك أكثر. سأحدثك عن صفاء. ربما من خلالها تكتشفين سعاد.

ـ لكنني أتعجب. كيف تمتلكين برودة أعصاب وعدم توتر؟

ـ سعاد! أنا مهندسة زراعية. وعملي غالبا داخل المختبرات مع كائنات حية صغيرة جدا وغير مرئية، مع متغيرات نباتية وجينية. تصوري وجود قلق سابق عن لحظة اشتغال في المختبر سيطفو على سطح الذهن وبركان النفس وينفجر، ماذا سيكونه التركيز مع مجهر وخلايا وتدقيق ملاحظة وفعل؟ لا شيء ! لا بد لي أن أمتلك أعصابي ولا أتوتر خلال عملي وكلامي. ربما ما صرت عليه الآن. ربما لو كنت مثلك أستاذة لصرخت وهجت وفجّرت المكنون تعبيرا أكبر. لكنني منزعجة من تطابق عيوننا بمجرد تقابلهما في النظر والرؤية. لو كانت هناك آلات سكانير حاضرة لأجل التشخيص لفضحت ما لا نعلمه.

- أو يكون ذلك فضيحة؟

- لا أدري. لكن ما يقلقني أكثر هو هذا التطابق في اللونين. قد أشك في حواسي ومحيطي وكأن الناس تفضحني وتفضح أسرارا لا أعلمها حين تصويبها لنظرها في عينيّ. والله تعالى يخلق من الشبه أربعين، لكن العيون تمتلك تحليلا آخر. أخاف من اقتحامه هو الأول. سأنتظر الآتي معك.

...

هل كان لزاما على السيد عزيز الحمدوشي أن يصبح محاميا؟ أن يوقظوه في ذلك الصباح ويخرجوه من دفء أمومة يتغذى به كل نهاية أسبوع، استراحة من قانون مدينة أصبح قاسيا في قيمه وعلاقاته؟

كانت طريقُ القانون والمحاماة رغبةَ خاله السيد عبدالعالي الزياني، الكاتب العمومي قرب المحكمة الابتدائية بمكناس. فبعد حصول عزيز على شهادة الباكلوريا، كان ينوي أن يتسجل بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس، لكن الخال كان مرافقَه ذلك الصباح، ومساعدَه في توفير أوراق الملف وفي التسجيل بكلية العلوم القانونية والاجتماعية والاقتصادية:

ـ "هذا هو عالم المغرب الحقيقي". هكذا عبّر أمامه ملِحًّا على المضي في هذا الاختيار المفروض.

ها هو اليوم يقف مصدوما أمام إنسانيته الشاعرية الإحساس، والتي طالما حنّت إلى حياة رومانسية وعاشقة. لكنها رمت به في ردهات المحاكم ونفايات المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والإدارية التي لا تحسم إلا بعدالة القانون وسيفه وزجره، والتي تُرمى كمتراكمات داخل ملفات نتنة تغري بالمال مقابل الاتساخ بأوحالها.

لعل حالات الأرق التي أصبحت ترافقه وتزعجه في عز الليل مرجعها ما سبق. ربما وعاها، وربما عبّر بذلك لصديق أو قريب أو جليس. عدمُ استقرار تراكمَ طبقات وطبقات. لم تعد الأولوية للتفكير في الزواج وشكله واختياره. منذ ثلاث سنين، كان ضغط الأم والمعارف، وكانت حيرته بين الزواج بموظفة أو برَبّة بيت لا تشتغل خارجه. ورغم ميله لدور الزوج ورب الأسرة التقليدي هذا، فإن اقتراحات أسماء متعددة لم ترقه. هكذا لم يحسم أمره بعد. حاليا أصبح همّه الثقافي والاجتماعي والحقوقي انشغالا ودافعا للاشتغال بصيغة أخرى غير تلك التي تحتاج إلى مسطرة قضائية ومرافعاتية. ثقوب كثيرة تنخر جسد المجتمع، منفلتة هي بين الوعي الغائب والواقع العفن والممزق. سيكون عفنا فعلا ما دام الضحايا داخله أطفال أبرياء!

يدرك عزيز بأن مرحلة تعليمه الجامعي لم تكن عادية. تلقى فيها فلسفة ووعيا وقناعات جديدة. اتخذ مواقف وحوّلها إلى سلوكات عملية بعيدة عن طابوهات المجتمع وممنوعاته. لكنه الآن يرى نفسه بين ردهات المحاكم وقد تحولت جدرانها إلى أسيجة حديدية تكبّله بالقانون وبالزجر المرافق له. بين النزاعات المدنية والجنائية، وهذه التي تفرعت عنهما قانونا، إدارية واقتصادية وغيرها، يرى ذاته لا تستطيع اختراق الحقيقة أو البوح بها عارية من كل الأقنعة الملجمة لها بالمساطر والشكليات والأدلة المعقدة المطلوبة في كل بيان بين مدّعٍ ومدَّعى عليه. مشاعر لن يفهمها من لم يعش داخل غابة العملِ ووحشية القضايا الموغلة في التستر.

أصبحت سماء رؤيته وفضاء عيشه ملوثين بسحب داكنة تعرقل صفاء إنسانيته الداخلية وبراءة طفولته التي أراد لها التحقيق حين كِبره. وكما شرح لصديق قريب له في لحظات انفلت فيها تعبير اللسان: كأنك استعددتَ لمشاهدة فيلم رومانسي أعجبك ملصقه المعلق وحينما دخلت القاعة وأُطفئت الأنوار وبدأ العرض، وجدْتَه فيلم رعبٍ ومشاهد قتل ودماء.

...

ساعدٌ مشرَّح بجرح عمودي يصل مفصل الرسغ الأيمن. آثار دم في خطوط حمراء بين جذع الشجرة ومدارها. تقريبا، بحسب عَدِّ بصر السيد عزيز الحمدوشي، أو عدّ الحاضرين في النازلة والواقعة، سبعة خطوط حمراء، ثلاثة منها منتهية لمكان الحفرة الكبيرة التي استحدثت في شكل مستطيل. كان عمق الحفرة مترا ونصف تقريبا. ما تزال الجثة الصغيرة ملقاة على بطنها. بدا ثوب ملفوف يكمم فاها. في تقليب الجثة على ظهرها، وحيث أُبعِد جل الحاضرين والمتجمهرين الذين ازداد عددهم حتى بلغ المائة وزيادة، تجلى للسيد عزيز الذي استنصر بالمسؤولين في متابعة الإجراءات مثلما استنصر به صاحب الدكان ومقدم الحي وعون سلطتها، أن العين اليسرى قد اقتلعت بمدار محجرها وحاجبها وجلدها حيث لم تعد سوى كومة لحم عفّنها التراب الذي سحقت به.

ـ ما هذا بحق الجحيم؟!

لا يدري من أين استقى تلك الجملة الاستفهامية في التعبير. لا يدري من بجواره إن كان استنكارا لما يشاهد أو استنكارا لابتعاد أحد المكلفين بمعاينة حفرة الجريمة مستعيذا بالله من الشيطان الرجيم ومن كل سحر مبين. سُمع كذلك من استعاذ بالله تعالى واستغفر واستنكر. سُمع من تراجعت خطواته أو اتخذ مسافة أمتار بعيدا عن دائرة الحدث. الكل أو الجل خاف من طقوس وروائح ما تزال آثارها سارية في النفوس.

سمع السيد عزيز الحمدوشي دوي طبول، وما كانت سوى دقات قلبه. استنفر الجسد قواه لمواجهة الصدمة التي شعر بها. احتاج لكي يستند على كتف مجاوره في الوقوف، والذي لم يكن سوى صاحب الدكان الذي طرق باب منزله ونقله من عالم أموميته وفطوره المنتظر والمشتهى إلى عالم غريب في هذا الصباح. نظر إليه وكأنه هو الآخر يستنجد، ناظرا ليد السيد عزيز التي أثقلت كهربةً سائر بدنه قبل أن تتحوّل للاستناد على كتف عون السلطة الذي انفزع هو الآخر. لم يعد للكلام حضور بين الأنام.

في زاوية أعلى الجبل وحدود النظر، وقف كلب شريد متشمما. لم يُعرف لشكله انتساب ولا صاحب. عوى وكأنه ذئب. نبح بلغته الحيوانية وكأنه يسرد ما حدث، وكأنه شاهد على ما وقع ومعايِنٌ له، ثم جعل سيقانه مع مهب الريح والاتجاه الذي أبعده عن دائرة البشر. كانت الغابة قريبة وأعلى وأأْمن. ولجها بحثا ربما عن مستحيل الإجابات وطبيعة البيانات. ربما كانت هذه الغابة أرحم من عالم البشر.

...

سترتعد يدا السيد عباس السالمي الماسكتين برزمة الأوراق والمستندات المرفقة في الملف. شعر طبعا بتغير وزنها بين بداية تأبطها أمانة وسيرورة ولوجها اطلاعا وتعرفا. ساءل نفسه إن كان باستطاعته الاستمرار في القراءة لتفاصيل الوصف الدقيق لهذه الجريمة في حق طفل صغير.

طلاسم كثيرة وغريبة أثثت ساحة الجريمة. وكأنه يرصدها لملف مقاضاة ومحاكمة. سيقف أمام قاضي التحقيق، وأمام هيئة المحكمة، وسيقُصّ عليهم ما شاهد وما جرى. لكن السؤال الذي سيحوله إلى جانب القضاة في جلستهم ولباسهم وياقتهم وكتفيتهم وربطة عنقهم، هو حول الجاني وحول السبب وحول القدرة على هذه البشاعة اللا آدمية. أكيد أن أفئدة المطلعين ستحترق أرقا وتتمزق إربا وألما.

(<u>يُتبع</u>).

كلمة تم شكل حرفها الأول وجُعِل خط تحتها دليلا على أنها حلقة مفصولة عن بيان وتتمةٍ آتيين. لاحظ السيد عباس بأن السيد عزيز قد جعل نفسه محكيا عنه. كيف انفصل كذات عن مجرى الوصف فجرّد أناه عن مجرى الحكي للقصة وأحداثها. أي انفصام في الخطاب هذا؟ مرضي أو صحي؟ لا جواب. بداية الاغتراب التنكر للذات وإبعادها عن لبوس الواقع. بداية جنون أو حكمة؟ ليس للكاتب أو للمتلقي قراءةً جوابٌ شافٍ وكافٍ.

تُرى، من كتب هذه الفقرات؟ استغراب رافق السيد عباس في ما سيأتي.

...

- ألو، لالة رابحة الغزالة والزينة.

- يزين أيامك يا بنتي الغزالة والعزيزة.

- مساء النور.

...

وجبة الصباح والمساء، ذلك الاتصال وذلك الحوار الذي يجمع بين أم وبنتها. هكذا هي السيدة صفاء، تجد نفسها عادلة في الإغداق على أمها بالمشاعر والتعابير، تعابير الحب والفرح والشوق. التغذية التي لا تحتاج فيها إلى حمية عصرية كما هي مع مستهلكي اليومي بالعاصمة الرباط. لكن اتصال هذا المساء، وبالضبط بعد زوال عصر هذا اليوم انقطع لسبب تقني في الاتصال ربما أو لعطب في الجهاز أو البطارية أو لشيء آخر لا تدري ما هو ولماذا. استغربت ووضعت هاتفها بهدوء فوق الطاولة بعد محاولات متعددة في تجريب الربط الناجح للاتصال.

كانت عينا سعاد محملقتين ومتابعتين بشغف لمجرى هذا الاتصال والحوار. لكنه لم يكتمل كتواصل بين الطرفين، ولم يصل إلى جواب أولي، ربما يفتح عالم حقيقة جديدة لم تعِشها الذات من قبل. استشعرت حقيقتها التي لم تدرك عمقها إلا هذه اللحظة. كانت سعاد مقموعة في كل محاولة سؤال حول

موضوع مثل هذا منذ صغرها. تشكلت نفسيتها بهذا الحاجز المانع لكل اختراق لشيء يفصل بين المقدس والمدنس ربما.

(ـ سأسلك لالة رابحة العزيزة.

ـ تفضلي بنيتي.

ـ هل عندي أخت أخرى اسمها سعاد وتعيش بمنطقة مكناس ولا أعلم؟ !).

كان هذا هو السؤال الذي أوقع لالة رابحة بنت الرحالي شريفة ولاد سيدي رحال، مغمى عليها. ذهبت في غيبوبة بعد وقع اصطدام. كدمة قوية تلقتها بجانب الرأس، قابضة على فوطتها التي لا تفارق يدها طول النهار، سر حذاقتها وحيويتها ونشاطها المنزلي. لكن السيدة صفاء أجّلت إعادة الاتصال:

(ـ سأحاول ذلك في ما بعد. الآن أريد التعرف على لالة سعاد أكثر).

...

تحمرّ عيناه وتتفجّر وجنتاه، يصّاعد البركان الذي يجعل الحرارة مرتفعة والجريان متسرعا. ينظر إلى يده الماسكة للملف والحاضنة له مفتوحا بين كفّ وساعد استندت عليه أوراقه. كانت يده اليمنى مستعينة بسيجارتها بين سبابة ووسطى، وكان الإبهام مساعدا لهما في مسك فنجان القهوة الثالث لهذا اليوم. فبعد صباح في العمل، تناول وجبة غدائه بمطعم قريب ومشهور على صعيد العاصمة بحي أكدال. كان قد أجّل التعرف على تفاصيل فقرات هذا العنوان الجديد في الملف إلى حين جلسته هذه:

"*نبوية*" !

نعم، نبوية.

هكذا هي تسميتها التي تعتز بها كطفلة. لا أحد يمتلك اسمها. وحدها المتمتعة به كاسم وبمناداتها به وعيشها داخله. سمّاها جدها لما عرضت أمامه بعد ولادتها ملفوفة داخل ثوب قطني وديع، ما دام ذلك قد تم في شهر هجري مبارك هو ربيع الأول والذي وافق فصل شتاء قبل سنوات مضت. شهر قارس فعلا، احتاج ليتم طقس الولادة داخل منزل الجد وليس في مستشفى أو في مكان دونه. كان أبو نبوية قد توفي بشكل مفاجئ وغريب ساقطا من علٍ على صخرة أحدثت نزيفا دماغيا حادا. ولأنه كان

بمفرده ولم يجد من يُسعفه فقد نزف في غيبوبة مميتة. وكان الأوان قد فات مع طلوع شمس الغد. كان هدوء النهر وغديره المشكل في الناحية اليمنى التي يقصدها الرعاة لا يعكس عبوس السماء بغيومها التي تكبدت بين بياض ورمادي وسواد استعدادا لعاصفة محتملة تغسل وجه البسيطة. غالبا ما احتفظت ضفاف الوادي المنحدرة بعشب رطب أنعشه دفء مائه المتبخر وذلك السديم الذي يشكل غطاء أبيض ناعما لعناصر حياة على طول المجرى ومنعرجاته، كأنه ملتف بها. لكن أولي المتلقين للصورة كانت هي كلاب القطيع التي استطلعت الأفق قبل أن تصل الأغنام منبسطَ هذه الضفاف.

كانت هذه التفاصيل حاضرة بتفاوت في ذهن الجد كما الساكنة والرعاة. لكن نبوية لا تستحضر شيئا منها. كل يوم كانت تعوض فيه غيابه ببريق عينيّ جدها وبسمته الصامتة التي تحفها لحيته البيضاء. فبعد أن طهّر مسامعها بأذان تلقاها من خلاله الوجود الرباني لهذا الكون وهذه الحياة، لمست سبابته شيئا رطبا خلف كتفها الأيمن. كانت شَمَة صغيرة مبرقة وناعمة.

ـ سبحان الله! لدى المولودة علامة ربانية مباركة. الحمد لله تعالى. سنسميها نبوية تيمنا بالنبي العدنان صلى الله عليه وسلم.

كان الجد فقيها تقليديا حافظا للقرآن الكريم، ومتلقيا للمنظومات النحوية والبلاغية والفقهية. عاد لفلاحة الأرض ونعيم خيراتها مدخلا الفخر لأسرته وعشيرته. قام بإمامة الناس في المسجد

وصاحبهم في مواقف ومحطات الحياة البسيطة. فاجعة فقدان الابن البكر عوّضها له القدير بحفيدة هي نبوية. وكأنها بلسم لجراح الروح تقوّى شفاؤه به مع تقوّي بنيتها وتبلور أصواتها وتعابيرها وملء فراغ الروح بلحن أنوثتها. كانت ملاكا مكتملا بين صوته وحركته وقسمات جماله البريئة والرائعة.

كانت نبوية تلك الطفلة المباركة التي استند لحضورها في قرارات عديدة احتاجها الجد في حياته، ومنها قرار حسمه في الأرض المتنازع عليها مع أهل القرية. اعتبرها الجل أرض جموع بما أنها لم تحرث ولم تزرع ولم تحصد منذ سنوات عدة، بينما يعتبرها الجد ملكا له ولابنه، ومن بعدهما نبوية على الخصوص، ما دام الابن هو الذي كان يحرثها قبل وفاته لمدة طويلة. ولكلٍّ شهوده، لكن شهود الجد أقوى ما دامت الأراضي لمن يحرثها منذ مدة، وما دام العرف كذلك، وقليل منهم من يمتلك أوراق ثبوتية لأراضيه، فتلك مصاريف مرهقة وزيادة تستخلصها الإدارات دون مقابل. لكن الجد الفقيه والإمام استطاع أن يصوغ ويحرر ويوقع ويستشهد، وأن يجعل بصمات لشهود عديدين على أقواله. يوم المرافعة، كانت أدلته أقوى وأثبت وأبْيَن.

كان الجد شجرة مورفة الظلال، وفيرة الثمار، أغصانها متفرعة وغنية. لكن كل شجرة كهذه تصبح محط أطماع خارجية، خصوصا إذا ما بدأ الجذع يتصلب ويتثبت بالأرض أكثر، وأزهاره في تلاقح خارجي بعيد ومجاور.

بُتر أهم غصن تبتهج به روحه وشجرته الوارفة، واختُطفت نبوية في ليل بهيم اندهش له الجميع. كانت أطول ليلة في السنة، وكأنه تم اختيارها للمهمة. لم يُترك أثر لما وقع، وكأن نبوية لم توجد في يوم من الأيام. ولادتها كانت في الواحد والعشرين من دجنبر، في ساعة متقدمة من الليل، الثانية والنصف صباحا تقريبا، وكان اختطافها بعد أن أكملت التسع سنوات، في الثاني والعشرين من شهر دجنبر هذا، حوالي الساعة الثالثة صباحا. كان غياب مَن في الدار تلك الليلة اضطراريا. لم تبق مع نبوية سوى الجدة التي لم تفطن لشيء أو لشخص تدلسَ وتسلل واسترق وسرق وخطف. كل الأفعال لم تطفئ حرقتها.

في صباح الثالث والعشرين، كان الجو قارسا وجليديا، وكانت الطبيعة قد تحالفت على الجميع لكي تجمد مشاعرهم إلى جانب حركاتهم. وكأنه قضاء وقدر منتظرين.

...

- لا!

كان رد وجواب الجد على مثل هذا التعبير السلبي القاتل.

- سأحرق دروب كل من ساهم وتسبب في حدوث هذا.

لكن الاحتراق اكتوى بنيرانه بعد أن اكتشف بأن جميع فروع الشجرة كانت قد انفصلت عنه، ولم يبق من الجذع سوى نصبه اليابس. بعد أن غُصبت منه نبوية، آخر ظل ناعم حماه:

نبوية الصمدي، نسبة لأبيها وجدها.

شُلّت الحركة وظهرت العلل المرافقة. اعتبر الجد، السيد الصمدي، ما يقع ابتلاء ربانيا، عليه أن يقبله ويرضى به، وله في صبر أيوب، وحيرة إبراهيم في تحقيق رؤيا الذبح، وقبول سيدنا نوح عليه السلام لغرق ابنه الكافر، ومحنة يعقوب في غياب ابنه يوسف، خير قدوة أو نموذج أو مثال للتحلي بالصبر وقبول هذا الابتلاء.

كان الجل يراقب ويترقب: لن يصمد السيد الصمدي طويلا مع هذه الصدمة.

ما تبقى لنبوية من عمرها: سنتان قبل أن تحيض. أفضل قربان تعشقه الجن في عالم الخوارق، والكنز الدفين!

في الثلث الأخير من ليلة اختطافها تقبّلتها طقوس السحر والشعوذة وعطش الجن لدمها، علّها تحقق للإنسان عطشه للكنوز ومال الدنيا الدفين. لحظتها كانت الملائكة ترفع أعمال البشرية للسماء، مدونة ما وقع وما سجلته منها. قد يكون حسنات كما قد يكون سيئات. وكل منهما درجات في درجات.

...

لم يعد السيد عباس السالمي على دراية لمن يقرأ، هل للسيد عزيز الحمدوشي أم لجد نبوية... يلاحظ الحواشي الكثيرة والتعاليق المتعددة المرافقة لمتن القصة والقضية. وينحرف السيد عزيز الحمدوشي بالحكي لكي يتكلم عن ذاته ومتفجراتها:

أعتبر هذه الكتابة بعيدة عن كل مرافعة قد يصاغ بها أي ملف قضائي ينشد عدالة ما. أحرر هذه السطور كإنسان، أرافع بها الوجود البشري. كلنا يعلم حجم الجريمة التي ترتكب في حق الطفولة، وهذه الأرواح البريئة. ها هو قدر التخلف وليس القدر الرباني يلاحق تصرفاتنا لكي نتواطأ على أبشع وحشية نمارسها. رمز الطفلة نبوية، ضحية لأطماع القبيلة، وأصول العشيرة الذكورية. رمز الطفلة نبوية ضحية لممارسات شعوذة وطقوس بحث عن الكنوز الدفينة. وما أشد حرقتي حينما ألاحظ استعمالهم للعبارة بلغة عربية فصيحة، وكأنها سليمة في بيانها قانونيا وأخلاقيا، رفيعة ومقبولة في الاستعمال: الكنز الدفين!

تبّا لها من ثقافة، وويلٌ لها من جرائم !

يضع السيد عباس السالمي الملف فوق الطاولة. يضع كفّه، المتعرق بحمل الملف خلال قراءته، على شفتيه المزمومتين والمصدومتين والكاتمتين لأي حروف يمكنها أن تنفلت. لم يبق هناك أي كلام يمكنه أن يضيفه. البركان الذي كاد ينفجر به كيانه نفّسه تعليق السيد عزيز الحمدوشي على قصة نبوية: تبا لها من ثقافة. لكن الغليان ازداد أكثر. لابد من زيارة جبال الطفولة. هناك ضحايا مشابهة. هناك رسالة. سيتصل بالسيدة سعاد علّها ترافقه في رحلته المتحدية.

...

في طريقه إلى شقته بإقامة الأخوين، يمر عباس أمام مدرسة علال بن عبدالله الموجودة عند بداية شارع الزرقطوني في تقاطع مع الطريق الوطنية رقم 1 التي تفصله عن شارع النصر بالعاصمة الرباط.

حينما يكون المزاج منسجما مع عشق ألوان الحياة قد نجد عباس يخطو رويدا آتيا من شارع محمد الخامس، عابرا باب الرواح ثم شارع النصر حتى يصل إلى مسكنه. قد يغني. قد يدندن. قد يكتفي بتأمل جمال وهندسة الأشجار الذي يهبه عبور هذا المسلك. لكنه الآن، وبعد تفاعله المتكرر مع مستندات الملف ورواياته أصبحت نظراته غريبة وجديدة. أكثرَ من التركيز في عيون المارة ومُصاحبي الأطفال. قد يرعبه مرور طفل بمفرده في شارع أو زنقة خاليين.

ها هو يقف كل يوم أمام المدرسة الابتدائية بشارع الزرقطوني، يتأمل شغب الأطفال ولعبهم وصراخهم. يطمئن لوجود أولياء وآباء وأمهات ملتزمين بمرافقة فلذات أكبادهم ذهابا وإيابا. لكنه يرتعش حينما يرى طفلة وحيدة، حاملة لمحفظتها وراء ظهرها ووحيدة في مشيتها. أصبحت كل وضعية مثل هذه مصدر خوف عنده، وكأن المجتمع ضباع متربصة بحملان شاردة. هزّه الحنين إلى عباس الطفل، إلى الأمومة البعيدة فيه، إلى نظرات الرعاية الصادرة والواقعة هناك، وجد مسافة كبيرة عليه أن يسترجعها عبر الزمان والمكان، عبر عباس ودواخله أكثر وأكبر.

كان لقاؤه الأخير مع سعاد متوترا. شعر كل واحد منهما بأن هناك متغيرا جذريا في حياة الآخر، وحياته هو. كان على كل واحد أن يراعيه. ولن يكون هذا الواحد أو الآخر سوى القريب إلى روحه ووجدانه وحياته. لم يكن هذا القريب سوى اسم الآخر وكيانه: عباس أو سعاد.

ما أدهش سعاد أكثر حين التعرف على جديد عباس هو ذلك التحول الجذري الذي عرفته عاداته. استغربت بإعجابٍ لقدرته على الإقلاع عن شرب الخمر، تقليله من شرب السجائر، إكثاره من المشي عابرا شوارع العاصمة الرباط ومستكشفا لها، بين أكدال ومحل السكنى ومركز المدينة وشارع محمد الخامس داخل هذا المركز أو المحور وكأنه مطهر لحواسه وذهنه ومجدد لملكة تعرف واكتشاف العالم حوله. حتى من كلامه فقد أصبح بقياس واختصار وهدوء مُرافق. تغيرات جميلة وظاهرة، لكن: ما سرها؟ قد تعرف سعاد بعض الجواب، وستحتاج إلى وقت ولقاءات وحوارات من أجل معرفة البعض الآخر.

...

طبعا قد تأتي منعرجات تغير الاتجاه والطريق والقدر. جلسة الشاطئ بمدينة الصخيرات لم تكتمل في مناخها الوديع والحميمي بين حدس وشوق واكتشاف، بين سعاد وصفاء. فقد اتصلت السيدة صفاء بباقي أفراد الأسرة. أخبروها بإغماء الأم وارتطامها. عادت للعاصمة وتكلف زوجها السيد عصام الوافي بإحضار ابنهما أنس. سافروا ثلاثتهم إلى مدينة الصويرة ليلتها. بقي سؤالها حارقا حول وجود أخت اسمها سعاد من عدمه. هل يكون مجرد طرح سؤال ولو كان عابرا خطرا على الإنسان؟ وهل نخاف من احتمالات الأجوبة أم نفر منها؟ قد تلوم نفسها إذا كانت هي سبب ما وقع للأم. لكن الغموض تأجّل بيانه إلى حين محاورة الأم: لالة رابحة بنت الرحالي.

كانت الساعة تشير في لوحة السيارة الداخلية إلى الثانية والنصف صباحا. أوقف السيد عصام محرك السيارة ونزل بهدوء كبير مرافق لكي يحمل ابنه النائم بين ذراعيه. ولج الثلاثة المنزل الذي بقي مضاء في جل مرافقه. فعلا كانت لالة رابحة في غيبوبة، وما تزال في عناية مركزة بمصحة خاصة بمدينة الصويرة.

حوالي الثامنة صباحا، كان اتصال سعاد بصفاء للاطمئنان. بين غفوة ويقظة، ردّت السيدة صفاء على المكالمة، تبادلتا

الاطمئنان والدعاء وترجي الشفاء من عند الله تعالى. بقيت التفاصيل لمكالمة لاحقة ستتم في المساء غالبا.

...

الأرق المصاحب للقاء سعاد مع عباس كان حجمه أكبر، وكان سببه مشكل عباس أكثر منه مشكل سعاد. تفاجأت فعلا للتحول الكبير الذي عرفته حياة عباس السالمي. فأن يقرر التوقف عن تناول الكحول، أن تصبح علبة السجائر بعيدة عن جلسته، كل هذا بدا أمرا غريبا فعلا. الناس عندما تقتحم حياتها المشاكل تلجأ إلى الشرب والتدخين، وهذا العجيب يكف عنهما. فكم ترجّتْه من قبل في الإقلاع عنهما، خمرا أو سيجارة، لكن وقوع الأمر هكذا احتاج لحوار وتساؤل وتدرج في الفهم. لم يكن استنطاقا، فحريتهما الشخصية تعرف طريقة التحقق المتبادل والتكامل الممكن في التقاسم.

ما أزعجها أكثر هو تزاحم القضايا في ذهنها وحياتها النفسية. تجاور قضيتين أساسيتين واندفاعهما نحو تفجر واحتكاك في شراراته. ربما حجم موضوع تحول عباس ليس بنفس درجة حجم قضية شبهها بالسيدة صفاء، لكن قدرة الذهن على التفرغ وجعل سعة خاطر للاهتمام والفهم فهذا ما لم يتم بسهولة عند سعاد.

ـ وأنت يا سعاد، ألم تتغيري؟ ألم يلاحظ عباس شيئا من ذلك؟

رددت أسئلتها في دواخلها وهي تعلم بأن لقاءها مع السيدة صفاء غيّر الكثير فيها وسيكشف عن المدهش والغريب غالبا.

وتراجع دواخلها حينما تختلي بذاتها داخل شقتها. تعلم أن كونَ أسرتها وأمها ما يزال يغلي ويضطرب بحمم براكين آثرت أمها لالة عائشة إبعادها عنها ما أمكن. ملف إرث وصل إلى عتبات المحاكم ولم تصل شظاياه بعد لتلفح أو تلفع هشاشة سعاد الداخلية، سعاد بنت السيد المغراوي والسيدة عائشة لبريكي.

حينما تُشرّح وضعها الاجتماعي وتَمزُّقَها داخله، سواء مع رفيقها عباس أو مع إحدى صديقاتها، تلمس المنفلت من الحقيقة، لكن ماذا عساه يكون هذا المنفلت؟ يبقى قوس استفهامها مشرعا. ربما تجد له منفذا لبيانه، لكنها لم تجد تفسيرا بعد لذلك الكابوس الذي أصبح شرارة رصاصة مستهدفة لفؤادها، يوم عيّرها طليقها في أوج تمزق علاقتهما:

ـ اذهبي أيتها اللقيطة!

ـ تبًّا لكَ ولوضاعتك. هكذا ردت عليه حينها. وهكذا حافظت في الرد على ذلك الصوت الحامل لما عيّره بها.

اعتبرت اتهامه أو إهانته مجرد تلفظ وتعيير تمتلئ به ألسنة الناس تلوثا وقذفا في كل حالات الغضب أو التلاسن القادح. لم تزنه بمحتوى ما يعنيه بين الحقيقة والوهم، بين الصواب والهذيان في الكلام.

(أعيش بين ظل محجوب لا أراه، ونور بقياس من معي. أشعر بوجود دائرتي كتمان وحقيقة. مجهول يزاحم وعيي وإدراكي وراحتي.

ألاحظ هذا الصراع بين أهل العمومة. ثلاثة أعمام: مسعود، رابح، إدريس، وعمة واحدة هي أمي الغالية. العم مسعود فلاح مهتم بأرضه الزراعية وتربية الأبقار والأغنام. أنجب من زوجته الأولى عمر ولطيفة وصالحة. عمر تزوج من بنت عمه رابحة، ولطيفة متزوجة من ابن عمها رابح كذلك. أما صالحة فهي مطلقة بابنة، وجدّة لحفيد صغير منها. العم إدريس كذلك فلاح، لم ينجب أولادا. انتقل للعيش بمدينة مكناس بحي البساتين، وفضل أن يجعل حياته مواكبة للحياة العصرية، بلباسه وثقافة عيشه واستهلاكه. قد يعوزه التعلم المناسب، لكنه يعوضه بنباهته وممتلكاته ومشاريعه التي تطورت، خصوصا حينما أصبح شريكا لثري كبير بالمدينة يزحف على الأرض والعمران. أما العمة الغالية فهي أرملة من زوج كان عسكريا، وأم لخمسة أولاد توفي احدهم في حادثة سير وبقي الأربعة، واحد بإسبانيا، وبنت متزوجة بفرنسا وأخرى عانس تعيش معها في المنزل، وابن في وزارة الداخلية بمنصب متميز.).

(هذه عمومتي يا عباس. لكن، تعال الآن أشرّح لك حقيقتها. أبدأ بالعمة الغالية التي بحسب علمي قد قام إخوتها بتصفية مسألة الإرث المشترك معها. أعطوها حقها في بداية زواجها واستطاعت أن تبني حياتها مع أولادها بشكل منفصل عن

العلاقة مع الأعمام، خصوصا بعد وفاة زوجها. تشمّرت وباشرت تتبع متطلبات عيش أولادها وضمان مستقبلهم. لم ترجع العلاقات إلى طبيعتها مع إخوتها إلا بعد أن نجحت في تربية أولادها وأصبحت ميسورة الحال ومميزة بما وصلوا إليه.

مات العم مسعود والعم رابح، أما العم إدريس فقد أصبح متعاليا عن كل ما تشابك من علاقات ومصالح بين أفراد الأسرة. حينما توفي والدي رحمه الله، طفا على السطح ما كان متغلغلا في القاع. كنت سعيدة بكون بعض الممتلكات قد سجلها أبي باسمي وباسم أمي. كنت مدركة لدرجات معارضة الأسرة الكبيرة لمثل هذه الخطوات في لقاءات وتجمعات صاخبة جمعت الشجرة بأغصانها المبتورة هنا وهناك: "النساء تفهمن في الاستهلاك ولا تفهمن في تدبير الأملاك". هكذا تعبيرهم وموقفهم من المرأة عموما. كانوا متربصين بنا نحن الإثنتين خلال حياة أبي وبعده موته أكثر. منزعجين من مصير المال الذي سيصبح موروثا. جماعة الذكور تتأهب للانقضاض على التركة مبعِدة الإناث. هكذا تصوروا الأمر واستعدوا له.

كان حرص أبي وأمي على إتمام دراستي الثانوية فالجامعية والمهنية بمدينة مكناس كبيرا. وكم كانت سعادتي لهذا الانتصار الذي شجعه الوالدان. لكن، كم كان الاستغراب من تلك الوجوه الشاحبة التي تنطفئ بمجرد ما تلتقي معك أو تتواصل معها. لقد أبعداني عن كل هذه الحروب النفسية المتجددة ما أمكن، والتي مزقت الأحشاء والروابط. لكنني أشعر دائما بالغربة الداخلية:

لماذا يُكَنّ لي كل هذا العداء؟ ألِكَوْنِي أنثى؟ أَلِكوني درست وتوظفت وأصبحت مستقلة بسكن وحياة؟ لماذا؟

ما أستغرب له أكثر هو جرأة أحد أبناء عمومتي ورغبته في فرض زواج قسري معي لكونه ابن أخ أبي: (ما نخليوا رزقنا يذهب لغيرنا). هكذا عبّر وعبّروا. هكذا اعتبروا المسألة رزقا ينتقل من ذكر لآخر. لم أدرك حينها أنه تسلّح بمنطق الإرث الشرعي لكي يجعل ما يمكن أن يتحوّل إليّ كإرثٍ، حقا له حين الزواج مني أو حين وفاتي. وستبقى شجرته المتفرعة الأغصان تنهش من كل ما يمكن أن تثمره أقدار الأرزاق في حياتي وبعد مماتي. سيكون الزوج الذي يرث النصف، وربما الربع. سيكون الأولاد المحتملون إنجاباً هم من سيتحول لهم المال الموروث. سيكون إخوته وأخواته وأبناء إخوته وعمومته هم القريبون من التركة والإرث في حالة ما إذا لم ينجب... كلها احتمالات كادت أنيابه المكشرة، والتي تجلّت في نبرة كلامه وضغطه وتعبيره، أن تبسطها كتفسير لحقه في الزواج بي ووجوب تلبيتي لطلبه وطاعته في الأمر ! غريب كل هذا.

ربما سأتحدى أمي، لالة عائشة، وأخترق حقائق هذه الشجرة المنفصلة الأغصان والفروع. سأرى ما يخبئه ملف المحامي المكلف بقضايا نزاع الإرث داخل أسرة المغراوي الكبيرة. لن أعود قاصرة أو أنثى ممنوع عليها الفصل في عالم يحتكره الذكور والأصول. لا عُرف ولا قانون يشرعان هذا المنع).

(أكتب إليك أو هي مذكراتي أجعلها صفحات عارية تقرأ سطورها وتتعرف على ما يؤلمني ويمزق أحشائي. أكتشف

المضمر مع عملية الكتابة. لعلني أتخلّص من هواجس قد تصبح كوابيس.

عليك أن تختار المرأة وتعرف حملها وهمومها قبل مداعبة نفسيتها وشخصها. أنا كالخريف الآن، أتخلّص من أوراق شجر يابسة. لعلني آتيك ربيعا بعد حين).

...

كانت السيدة صفاء تريد أن تسمع الجواب من أمها لالة رابحة. لم تشأ إعادة طرح السؤال على باقي أفراد الأسرة إلى حدود اللحظة الحرجة التي تعيشها. فهل تعتبر نفسها المسؤولة وسببا لما وقع لأمها، أم هل تعتبر سؤالها لها قوةَ حضور وحقيقة في الجواب؟ أمجرد سؤال يمكن أن تصبح له هذه الهالة والقيمة المخيفة في الطرح والتداول. كم من علامات استفهام يطرحها الإنسان خلال حياته. كم يهمل منها ولا يبالي. وكم كان عليه أن يقف على علامات استفهامه خلال محطات حياته.

لا تدري. ما يهم الآن هو سلامة أمها لالة رابحة. ما تزال راقدة بالمصحة الجديدة بمدينة الصويرة. حضر ابنها مصطفى من مدينة مراكش. جاء الأب من الضيعة التي يقضي فيها جل أوقاته خلال الأسبوع. تتأمل صفاء كل الحاضرين والجالسين أمامها. أصبح عالم العيون مختبرها، استعانت في فحصه بمجهر عقلها وحدسها ونبرات الأصوات ولكناتها، كما بأشكال الهيئات وألوانها. كانت كل مرة تشعر بأن أفكارها مجرد سراب أو هي أوهام تنمو وتتكاثر مثل الفطريات المزروعة، فتعمل على سكب مواد تذيبها وتسحقها. لكن، هل من قدرة على التحكم في دواخل النفس وتداعيات الذهن؟ حتى إذا روّضت نفسها على ذلك خانتها أحلام اليقظة أو الكوابيس خلال نومها في الأيام التي تلت وعكة لالة رابحة بنت سيد الرحالي.

تجد نفسها متصببة عرقا، مبتلة به في بدلة نومها، وطعم الماء أصبح على لسانها غريبا، ومذاق الطعام والأكل تغير بين أطرافه كذلك. هكذا أصبح الأرق يزحف عليها ليلة بعد أخرى. يضيف لحفلته الدرامية ساعة تلو أخرى. بدا على محجريها التعب، وفسّره الجل بخوفها على أمها وتأثرها بما حدث. بثنائي السبابة والوسطى تزم شفتيها حصرا للذهن ولعمليات التفكير. أي خطوة ستمضي فيها؟

في اليوم الرابع، بدأت الحالة الصحية للأم تتحسن. طمأن الطبيبُ المتابع لوضعها الجميعَ. والكل حمِد الله تعالى. اختلطت الدموع مع الابتسامات مع العناق وتبادل نظرات فرح جديد جدّد للعائلة أواصرها. كان أول مَن كلمته لالة رابحة بعد استيقاظها وقدرتها على التواصل الشفهي هو زوجها، وبطلب منها بقيا في الغرفة بمفردهما مدة ربع ساعة تقريبا. خرج بعدها السيد آيت البهي مطأطئ الرأس:

ـ الحمد لله. على سلامة أمكم لالة رابحة. لقد طلبت مني أن تدخل عندها الآن لالة صفاء بمفردها.

لقد تجاوز السيد آيت البهي التسع وستين سنة من عمره. لكنه ما يزال متماسك البنيان، سليم الحواس، قوي الحركة والفعل. ما يزال يمارس هوايته التي أصبحت إدمانا جميلا عنده، وهي هواية القنص. تأخذه مسارات الشعاب والجبال منذ سنين عديدة، كما رحلات الليل والنهار في عمليات الاستكشاف والقنص والصحبة والمغامرة في كل ذلك.

وها هو حاضر اليوم ببدلة القناص التي أصبحت لا تفارقه، ملازمة لهويته جل الأوقات. قد يكون الحذاء الجبلي الخاص في صندوق السيارة الخلفي، كما قد يكون العتاد هناك كذلك. لكنه قبل أن يغادر وبعد أن دخلت صفاء وأغلقت باب الغرفة خلفها، نبّه الجميع بشدة:

ـ اسمعوا جميعا. لالة رابحة توصيكم وتنبهكم: إياكم أن تذكروا شيئا عن صغر صفاء وحقيقة طفولتها الأولى. لقد قلّدتكم جميعا أمانة وصيتها بين السخط والرضا!

فهم الجميع ما يجري داخل الغرفة بين الأم وبنتها، ولم يجرؤ أحد على إضافة كلمة معلقة أو مستفسرة. سيبقى السر قابعا في صندوق أسرار أسرة آيت البهي، دفينا.

ـ لا أحد يقبل إثارة أُخُوَّتنا ومحبتنا جميعا. هكذا ردد الابن مصطفى دون أن تسمع منه كلمة في الموضوع.

...

منذ نعومة أظافره، كان يميل لسماع القصص العجيبة والغريبة. كان السيد حمودة آيت البهي في السادسة عشرة من عمره حينما حضر طقس استخراج كنز دفين. ما يزال يتذكر القصة بأكملها. يومها كانت مهمته حراسة ليلية لمحصول حصاد زراعي. كان متكئا على جذع شجرة خالية إلا من غصن قاوم الحر والتعرية والإنسان والحيوان، وبقي عاليا ومائلا بعيدا عن كل يد ممدودة أو شفاه ملتهمة لوريقاته. ورغم ذلك كان حظ السيد حمودة منه أن مدّه بمتكإ وقدرة على متابعة ما يقع. كانت جماعة من أربعة أشخاص. أحدهم يبدو عليه أنه حافظ للقرآن الكريم، وقارئ لما تيسّر منه. كل مرة يُطلب منه وهو في قرفصائه أن يزيدهم تلاوة لآيات: زِدْ آ لفقيهْ!

(بسم الله الرحمن الرحيم، قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا...).

يعمل شخصان على الحفر بالتناوب وعلى إزالة التراب من محيط صخرة متوسطة الحجم والكبر. بقي الشاب حمودة صامتا وجامدا في مكانه. فمن وصايا الأدغال والأمكنة الموحشة ألا تصطدم بمثل أو مع هؤلاء أو مع حاملي مخدر الكيف بين

السرايا ومنعرجات الجبال. دحرج الثلاثة الصخرة إلى أن تزحزحت عن مكانها الأصلي بأمتار قليلة.

ـ انهشْ التراب بأناملك يا امحمد! الجن لا تحب المعدن.

استخرجوا شيئا مستطيلا في عتمةٍ سمحت برؤية ظل الأشياء والأشباح. بقي الشاب فاتحا فاه، كاتما أنفاسه. لم ينبس بهمس ولا حرف. على يمينه سارعت الجماعة إلى الانصراف بعد ساعة وربع تقريبا من إنجازها لورشتها هذه. التفت إلى جهة كبب السنابل المتراكمة. كان الكلب مادًّا ساقيه الأماميتين جاعلا لهما سندا لعنقه وعينيه المغمضتين. لم يشعر بشيء ! أمرٌ حيّر وأدهش الشاب حمودة وجعله يصدق خوارق ما وقع.

حينما حكى ما وقع، تعددت التأويلات والتفسيرات، كما تضاربت أشكال اللوم والتحذير. بعضهم لامه على عدم الصراخ وطلب النجدة: على الأقل كان الكلب سيستيقظ وينبح ويخوّف. ربما يتركون ما استخرجوا. من يومها يمكنك أن تصبح غنيا يا حمودة. لكنك جبان أو بليد!

وبعضهم الآخر دعاه لحمد الله على سلامته: لو فطنوا لوجودك لذبحوك من الوريد إلى الوريد، وقدموا دمك قربانا لملك الجن وسلطانه. أولئك قوم مسكونون، لا يرحمون، يفعلون ما يؤمرون. ربما تلك الآيات جمّدت حركة الجن، وإلا لكانوا هم الذين سيمسّونك!

ـ دعني أرى خطوط يدك وكفك! ويحك. أنت زهري. أنظر إلى هذا الخط المستقيم المخترق لمفرق كفك ورسغيك. أتعلم لو فطنوا لك في عز ذلك الليل لاختطفوك لمهمة كنز دفين.

مضت خمسة عقود وزيادة الآن. كبر خلالها الشاب وأصبح شخصية بارزة لها علاقات. لكن عقدة الفضول ودهشة الغرابة وطمع الكنوز، كل ذلك امتلك فؤاد السيد حمودة آيت البهي. ربما لم يخطط لكل ذلك في البداية. إنما هي هواية القنص وامتلاك السلاح والتجوال بين الهضاب والجبال والتلال، أمور أشعرتْه بقدرته على التحكم في كل مغامرة ومعرفة كنه كل مكان مختلج وغريب. وأصبح له أتباع ومعاونون وشركاء. لم يقحم أبدا أفراد أسرته. كانت جماعة صيده وقنصه كافية عنده. كان تنسيقها مع فقيه جديد مستكشف لخرائط وشفهيات موروثة ومليئة بالرموز والقياسات وشيفرات الحل والعقد، والفتح والإغلاق، أمور ضرورية تساعد الجماعة كل حين على خوض مغامرة جديدة. وما الأخوف فيها؟ درجات اطمئنان تقترب من الغرور ضخّت تشجيعاتها في شرايين ملتهبة وتواقة.

ـ ما الأخوف فعلا؟ خنزير بري جريح بين الأشجار أو أنثاه المدافعة عن صغارها، أم تقليب حجر وحفر تراب لاستخراج شيء دفين إن وجِد؟

كانت عبارته الأخيرة دليلا على أنه اتخذ كل شيء مغامرة وتحديا. ما لم يقدر عليه حمودة الشاب، استطاع السيد حمودة الرجل والشيخ، التدبير له والتصميم للمضي فيه.

ولم ينس يوما من الأيام تلك المفارقة التي زادته تحديا. كان في حقيقته يريد اختبار تجربته من طرف شخص ملمّ بأمور الدين والحلال والحرام. لكن الفقيه الذي يؤم الصلاة بالمسجد الجديد بالمدينة لم يكن ليؤثر فيه برأيه، خصوصا وأنه يعلم مغامراته وتمسحاته السياسية والإدارية. لا عُدّة لرأي متلبس بالشهوة والمادة، ولا قداسة:

ـ التوكل على الله تعالى مفتاح كل رزق حلال. وتلك طريق الجن كلها حرام!

ـ سبحان الله! هكذا ردد السيد حمودة آيت البهي عبارته المصطدمة مع المفارقة: وهل يعرف فقيهنا حدود الحرام والحلال في حياته وعلاقاته؟

هكذا اتسعت دائرة المغامرة إلى أن أصبحت تنسيقا مع مجموعات وانضافت لها طقوس لم يتوقعها قبل ذلك.

فعلا، بدا الأمر مجرد مزحة بسيطة في بدايته. وها هو اليوم ضيف مبارِك لطقس استخراج كنز دفين. اتخذوا طريق الشمال، وسط البلاد. كان جبلا منعكسا بدثاره على صفحة السماء، وكان ضوء مدينة فاس، من بعيد، باعثا لونا ورديا باهتا، بالكاد يفصل المسافة بين الجبل والمدينة. لكنها مسافة طويلة تفرقها قرى وأودية وأراض فلاحية وشعاب. غير بعيد عن سد تلي، كان هناك مقام ولي صالح مدفون داخل بناء مقبب، متشقق ومطلي بالجير. المكان مهجور منذ سنين. ربما عرف اهتماما وطقوسا من قبل. بقايا شمع وسخام وشظايا خزف طيني

متكسر... كان السيد حمودة واقفا ومتابعا ومباركا بحكم "زهريته" لأحداث الليلة، مبخرة تقليدية صغيرة مشدودة بثلاث سلاسل صغيرة جدا، محمولة بين إبهام وسبابة الفقيه المتسبب بذكره وآياته وطلاسمه. خطوات محسوبة بين خروبة مجاورة والجهة الشرقية للضريح. وكأنه صفا ومروة لم يكتمل ذهابه وإيابه.

بجانب السيد حمودة آيت البهي، وقف سائق السيارة التي نقلتهما إلى عين المكان: مرسيديس 240. ستكون هذه المرة الثانية التي يحضر فيها معهم هذا السائق. لكنه خلالها كان يصور بهاتفه المحمول. ربما بدا الأمر تسلية، كلما دعا المصوّرُ جارَه لرؤية الصورة المعتمة في شاشة الهاتف، لكن الكاميرا كانت كل مرة تتحول لترسم وجه السيد حمودة وتسجل كلامه وردّه في الحوار.

- لا بد من قربان. أهل المكان لم يردوا على تعاويذنا ولا أشاروا إلى حضورنا. بقيت ثلاث ساعات على طلوع ضوء فجر جديد. لنُسرعْ إذا شئتم النجاح في المهمة.

هكذا حسم الأمر صاحب المبخرة والسبحة والهرولة بين القبر وشجرة الخروب.

طلبوا من السيد حمودة البقاء بعيدا عن المكان ما أمكن. ليتابع إذا أراد ما سيقع، لكن لا يجب عليه أن يتدخل في أي لحظة. كانت سيارته التي رافقه فيها أحد أفراد الجماعة مركونة بموقف السيارات بمدينة المهاية، بين مكناس وفاس، على

الطريق الوطنية رقم ستة. وتنقُّلهم نحو هذا المرتفع كان على متن سيارة المرسيديس 240. لم تلتق الجماعة إلا داخل هذه السيارة حيث بقي الاثنان في انتظارهم قبل ذلك. صليَا بمسجد المطعم الذي تناولا فيه عشاءهما وارتشفا من كؤوس شاي منعنع إلى حين وصول الآخرين.

إلى حدود تلك الليلة، كان السيد حمودة يعتقد أنه يمتلك هبة ربانية مباركة. فأن يكون زهريا فذلك فأل خير، وفأل الخير تجلى في نجاحه في فلاحته وتجارته وزواجه وأولاده وعلاقاته... كلها مباركات زادت من ثقته بنفسه وشعوره بالزهو. كان معدل مشاركاته لا يتعدى المرة الواحدة في السنة. وكم من مرة لم يتحقق شيء مما هو منتظر ومرجو. وكم من مرة تحوّل الطقس إلى نزاع وشجار، وكان كل مرة يُبعَد عن الحدث حتى لا يقحم في تفاصيله. لكنه لم يكن يدري ما يحصل بعدها. مرةً، أتوا بقدر خمسة آلاف درهم. سلمه له الفقيه صاحب الذكر وحامل المبخرة في كل مناسبة:

ـ السي حمودة، هذه بركة نقود لا ترد. إن شئت ألا تنفقها فاجعلها فأل خير ورزق متجدد. هي من زيارتنا لجبال دمنات وسيدي رحال كما تتذكر. ذلك النزاع الذي أبعدناك عنه خاصمنا فيه الجن. رفضوا تسليمنا الأمانة المدفونة. نازعتهم بالقرآن وببركة الأولياء. قلت لهم هذا حظ البشر فما بالكم تعترضون وفيم أنتم معنا فيه تختصمون؟ تلوتُ عليهم آيات تلو أخرى. تعوذت بالله من الشيطان الرجيم. سلّموا أمرهم وحالهم. كنتَ أنت قد انصرفت مع السائق بعيدا إلى القرية المجاورة. آثرت

الجن أن تسكن روح الضيف الجديد الذي رافقنا تلك الليلة. ذلك كان شرطها في تيسير استخراج الكنز الدفين. على العموم، ذلك الضيف قد شُفي الآن منذ مدة، وإن كان قدرُه أن يلتحق بربه في العلا بعد شفائه. لقد لقي ربه طاهرا. لقد ترحمنا عليه وتصدقنا على روحه وباركنا لأهله بدعائنا وبعض الرزق. وحتى نطهر قلوبنا من كل شح وبخل فإن هذه البركة من المال لا بد وأن تتسلمها ولتفعل بها ما تشاء.

اندهش وسلم وصلى على النبي العدنان، وبارك ما حصل، واعتبر نفسه مطلوبا في كل مباركة وكل رزق مجلوب. لكن ما وقع بجبال دمنات شرق مدينة مراكش ليس نفسه الذي وقع بهذه الجبال على مشارف مدينة مولاي يعقوب ومدينة فاس. فُتِح الصندوق الخلفي لسيارة المرسيديس، وأُخرج طفل منه بالكاد أُوقف على رجليه المكبلتين كما يديه وشفتيه. كان ساعد المكلف بحمله واقتياده قويا وكافيا لكي يقبض على ياقته ومدار سرواله. لم يميزه شخصيا. سمع أنينا وتألما. كان صوت الطفل فعلا يستجدي.

ـ ليست هناك أي مشكلة آ سي حمودة. رجال المكان وأهل الحال هم أصحاب الأنين وليس الطفل. فهم نائمون منذ غابر السنين، وجئنا لإيقاظهم على غفلة. هذا حالهم.

كان الفقيه صاحب المبخرة قد قطع العرق الموجود بين الكوع والكرسوع عند الطفل الصغير. رسم الخط الأحمر الدال على موقع الكنز. طالب الجنُّ بإهراق دم زيادة. لم يكفهم الدم الفوار لهذا الطفل الزهري. طالبوا بقربان أكبر. اقتلعت عينه اليمنى

بسكين حاد وسحلت ورصدوا بها سطح التراب ومرغوا كل ذلك في دائرة كبيرة نسبيا: هنا الحفر. أسرعوا!

ـ السي حمودة، سيأخذك السي العربي بالسيارة بعيدا. انتظرنا هناك حتى نلتحق بك.

نزلت السيارة منحدر الطريق في إياب، لكنها لم تصل إلى مدينة المهاية، ولا حتى إلى منبسط طريق. كانت ربوة بعيدة بحوالي ستة كيلومترات مع منعرج طريق. وعادت سيارة المرسيديس إلى الجماعة. ماذا عن بقية الحكاية؟ لم يعلم السيد حمودة ما وقع هناك فيما بعد!

لم يتوقع السيد حمودة أنه سيقضي ما تبقى من ذلك الليل فوق ربوة! بدت مشارف الصبح تظهر في الأفق المحيط. قرر حينها تكملة الطريق والسير فيها راجلا. بعد نصف ساعة مشيا أدرك خلالها أنه متخلّى عنه أو في مصيدة الجماعة. توقفت سيارة شحن صغيرة "بّيكوبّ" لتقله معها:

ـ إلى أين آسي الحاج؟

ـ تُهتُ عن طريق عين الله. ظننت المسافة قريبة، لكن يبدو أنني فعلا ضائع هنا.

ـ عين الله تبعد بحوالي عشرين كيلومترا. لكن، كيف وصلت إلى هنا؟ من أين جئت؟

ـ في الحقيقة، امتطيت سيارةً قال لي صاحبها بأنه سيقربني من العين. لكن يبدو أنه تخلص مني وتركني تائها.

وجد مسلكه في الجواب مريحا من كل ارتياب أو تساؤل يأتي حول أسباب هذا التواجد وهذا التيه. ساد صمت طويل خلال الرحلة التي دامت ست عشرة دقيقة. لم يكن السائق مستعجلا، كما لم يفكر السيد حمودة في شيء، ما عدا أن كل شيء بدا غريبا وخطيرا. خلال انتظاره فوق الربوة، توقف تفكيره وتحليله. جمّد كل استنتاج، رغم أن عينيه ظلتا جاحظتين في الظلام. لكن قرار السير راجلا والتنقل مع هذا السائق حوّلاه إلى وضع أنسب ليبدأ تحليله ويحاول فهم ما يجري.

يسترجع شريط الأحداث، وقَبْله سيرة الأشخاص. فهؤلاء الأفراد لم يكونوا جماعته الأولى في هذا الاستكشاف المتجدد لعوالم البحث عن الكنوز وحتى القنص في أماكن متنوعة. فعلا تغيرت الأسماء حتى أصبح وحده القديم داخل هذا الانتماء لدائرتها. تغيرت الأمور فأصبحت طقوسا غريبة. ظهر التكتم والإبعاد له. تم توظيفه بما يراه الآخرون مناسبا بين حضوره وغيابه.

وماذا عن الأحداث؟ سمِع زفيره مع برودة نسيم الصباح المنفلت من نافذة سيارة البيكوب. سأله السائق:

ـ ياك ما كاين باس آ الحاج؟

ـ الحمد لله. فقط تعب المشي وقلة النوم.

وكأنه حلم تمنى ألا يكون واقعا. لكنه واقع. والواقع لا يرتفع. فعلا هو طفل تم إهراق دمه. تم سحله واقتلاع عينه... لا يدري كل ما وقع، ولماذا. ستكون جريمة قتل. وهل هناك قانون خاص بالجن وقانون خاص بالإنس؟ من يعطي الشرعية لما وقع؟

ـ سأبلغ أقرب مركز للدرك. هذا أفضل. ردد قراره في دواخله رغم أنه قرار يشوبه تردد ما. تذكر تسجيل شريط الفيديو، ومباركته للخطوات. تذكر محطات سابقة ساهم فيها بأمواله وسيارته وشخصه وتنقله وسلاحه حماية وتخويفا من كل احتمال تهديد غريب... تلك تفاصيل لا يعلم معها درجات التجريم التي تورط فيها.

ـ سأصبح مسؤولا ومتهما. ما العمل؟ ردد استنتاجه وتساؤله وقرر أن يرجئ الحسم فيما يلي إلى حين عودته إلى مدينة الصويرة. هنا بإقليم فاس أو مكناس لن يّقدِّر قيمته أحد ربما.

شكر سائق البّيكوبّ وركب أول سيارة أجرة توقفت لإشارته:

ـ مدينة المهاية من فضلك.

آلمه ضميره حين تذكر وضع زوجته التي بقيت بالمصحة وكيف ترك أفراد الأسرة في وضعية حيرة من شرط التكتم وعدم إثارة موضوع صفاء وطفولتها. آلمه كذلك ما اعتبره سرًّا لا تعلمه حتى زوجته لالة رابحة. نحنح فاختلط ريق مرير مع عملية تنفسه. كحّ فكانت شبه ذبحة صدرية تغلّب عليها هذه المرة بابتلاع وطمر للسائل والسر الذي لا يعلمه إلا هو. بدت له

الضيعة التي سيعيش فيها ربما منفاه وملجأه الأخير. ربما تكون روضته التي ستحتضن قبره لو خيّروه في الأمر. كل الأفكار بدت غريبة ومهدّدة الآن. إنما الخطير أكثر هو مجريات أحداث هذه الليلة، أهي عصابة وقد تشكّلت ولم يكن يعلم بأنه عنصر فيها؟ ألهذه الدرجة كان في مصيدة شبكتها؟ ألهذه الدرجة كان بليدا حتى إنهم صوّروه بكاميرا الهاتف؟ وربما لم تكن المرة الأولى. لكن هذه المرة شاهَد خلالها بأم عينيه عملية التوظيف الدموي لكيان طفل وعذابات خوفه وألمه وجراحات الفتك بأوعيته الدموية وعينيه...

ـ رباه ! ما كنتُ لأصبح مجرما.

هكذا رافقت عبارات الندم رحلة عودته إلى مدينة الصويرة. كنتُ مستكشفا ومغامرا داخل الطبيعة. اعتبرتُ أن كل ما يقع فيها يدخل في مباح الصيد والقنص والاستكشاف. كوني مستغنٍ عن كل طمع ماديٍّ. إنما تجميع وتخليد ذكريات بقرون أوعال أو غزال أو أنياب خنازير هو الذي جعلني أتوق للَمس محتويات صناديق كنوز، هي تحفة فنية ساحرة ومغرية في الامتلاك. ربما امتلاك ما لا يمتلكه الآخرون، وما لا يقدر بثمن.

ها هي الآن زوجتي وأم أولادي في وضعية صحية حرجة، وها هو سؤال صفاء عن احتمال وجود أخت لها وقد أيقظ المواجع. أي ابتلاء أكثر؟ وأي بلاء أخطر من هذا !؟

...

لقد توتر المناخ بسبب التقارب بين الشبهين سعاد وصفاء. ربما كانت الوضعية الصحية لِلآلة رابحة تستدعي اتخاذ مسافة أمان في كل حوار وكل اسم أو شخص جديد يدخل على الخط: خط السؤال والحضور ولو باتصالاته الهاتفية.

راجعت سعاد ما تتالى من أحداث. ساعدها كل ذلك على فتق كل نسق بُني عليه وجودها السابق. أرقها تساؤلها كل مرة خلال الأيام التي تلت: من أين أبدأ؟ كانت حاسمة في إبعاد أمها لالة عائشة عن كل تناول متعلق بالبنوة والتبني، بالتوأم الذي يمكنها أن تكونه مع صفاء. بحدسها تعلم بأن الأم سترفض أية إثارة للموضوع.

في لقاءاتها المتجددة مع عباس، والتي قرّبت بينهما أكثر وفتحت عوالم وجدانية جديدة اكتشفها كل منهما، أصبحت لها مرآة حية وعاكسة وناطقة ومحاورة. تلك المرايا في شقتها بمكناس أصبحت خادعة وصامتة وغير مستجيبة. ربما هي متواطئة في صمتها، خادعة في تفاعلها... سيترافق الإثنان في رحلة بحث مزدوجة. وسيبدأ التحدي من مدينة مكناس ثم ميدلت والريش وضواحيهما... التحق عباس برفيقته بعد أن طلب رخصة عطلة لعشرين يوما ناسبت بداية فصل الربيع الذي تصبح معه أجواء السفر ممتعة بين المدن والقرى والطبيعة الخضراء الخلابة. هكذا كانت التعاليق المرافقة لطلبه من طرف أصدقاء العمل.

على العموم، كان سيهمل الاستفادة من رخصة العطلة خلال هذه السنة لو لم تقع هذه المتغيرات. كان صامتا على متن القطار. صمت لا يتعلق بالكلام ولا بحوار مع آخر مجاور أو محاور. حقيبة زرقاء احتوت بعض بدلات وأدوات ومواد نظافة، كما احتوت على الملف كذلك. لباس شبابي متجدد رغم وسامة العقد الأربعيني التي استرجعها مع توقفه عن تناول الكحول وتقليله من شرب السجائر. بقي متأملا مشاهد الطبيعة الممتدة والمتنوعة، والمدن التي يعبرها القطار، منصتا لنداء داخلي ينادي على طفولته ومراحله العمرية المبكرة. شعُر بأنه يحتاج لانسلاخ حقيقي من شرنقة العاصمة وثقافة العيش اليومي فيها. كيف سيكون أطلسيا جبليا أكثر منه برمائيا جاور المحيط الأطلسي؟ سؤاله الذي رافق ظله وظلّله كسحابة وهو خارج من بهو محطة القطار مكناس.

كانت سعاد جالسة وراء مقود السيارة. أناملها ما تنفك تطبطب على المدار الجلدي مستأنسة بموسيقى هادئة خلال الانتظار. فكرت في أشكال إخراج لهذا اللقاء الذي كان لهما وحدهما، وبحثًا عن كيان كل واحد رفقةَ الآخر معه. تصورت نفسها واقفة ماثلة بجانب رصيف السكة، مغتنمة رؤية رفيقها، حبيبها... لا تدري أي وصف للعلاقة هو الآن في هذه اللحظة. على محياها نظرة فرح وشوق ويدان ملوحتان للقادم على متن القطار. سينزل من بوابة العربة وسترتمي في أحضانه عناقا وتقبيلا. قد يكون الشال أو الفولار مراقصا الريح والحركة، ملوحا وملثّما المشهد بعطر أخاذ. ربما يُدثر الوجهين في قُبلة طويلة لا يراها الناظر، تواطأ فيها الشال كستار مسرح جميل.

لكنها جالسة في مقعد سيارتها، شاعرة بسيناريو الإخراج والحلم، منتظرة خروجه من المحطة ونزوله الدرج وبحثه عن مكان وقوفها أو توقفها وتواجدها، راجلةً أو داخل سيارتها.

شعرت بانتصار مشاعري. هكذا همس شعورها معها. مثُلَتْ أمامها شرفة شقتها ووقوفها فيها مواربة خلف الستار، متأملة ألوان الغروب ولحظات المجد الذاتي في الهدوء والراحة النفسية. ربما هو الحنين اختلط مع كم من حنين. ربما ستحتاج لمثل هذه الوقفة الرومانسية وبجانبها حبيبها عباس. هكذا أرادته وهكذا تريده وهكذا هو شعورها نحوه هو الآن.

تنقّلت بين محطات إذاعية. بدا أمرا غريبا تكرار أخبار مرتبطة بوباء جديد ظهر في بلاد الصين. ستكون بعيدة جدا عن كل احتمال. الصين دائما بعيدة في التخيل كما في المسافة الفاصلة بينها وبين بلدها المغرب. كل شيء بعيد هو في الصين. حتى من العلم فقد جعله الحديث النبوي مطلوبا في أقصاه (ولو في الصين)... لم ترغب في عيش الخوف من الوباء وهي في انفرادها داخل السيارة وقبلها في عيشها اليومي داخل وسط مدينتها مكناس. شعرت فعلا بأن خطر هذا المرض الجديد بدأ يزحف على العالم. الحمد لله أنه لم يصل إلى بلدها المغرب. لكن، ما الذي يخبّئه الغد بين المطارات والتواصلات واللقاءات؟ لا تمتلك جوابا.

غيّرت المحطة. لحظتها طفا لحن رويشة في أغنية "إناس إناس"... لكن الأنامل التي كادت تعزف اللحن والإيقاع على مدار المقود تماسكت يداها. إنها لحظة التلويح للقادم من

العاصمة الرباط على متن القطار (أطلس) الرابط بين مراكش ووجدة عبر مكناس وفاس. سبق النزول النظر بسرعة للمرآة ورشّ رذاذٍ عطّر الذات وفضاء السيارة الداخلي. كان فستانها رديا شفافا مرقطا بالأبيض، وكان التناسق مع الحزام والحذاء ولون صباغة الأظافر. كان تحضيرا مسبقا إذا، احتاجت معه سعاد للمناسب في هذا اللقاء. لابد للطفل من رعاية، وكلاهما طفلان.

فتحت الباب ونزلت وعانقت وباركت سلامة الرحلة. وضع عباس حقيبته فوق الكرسي الخلفي للسيارة وانطلقا إلى شقتها. لابد من استراحة مسافر وبعدها تبدأ رحلة محارب ومحاربة، عباس وسعاد.

...

من عينيها بدت دهشة جميلة ومقترف طفولي بريء. قد يلمس بواب العمارة ذلك. قد يتقاسمه مع جارٍ ناسب خروجه دخول الزوجين عبر البوابة. كان عالم الشقة معدًّ الترتيب، ووجبة الغداء جاهزة بما يشتهيه الذوق ويشتاقه الفرد من مأكولات ومشروبات معدّة داخل مطبخ الشقة وليست جاهزة للمارة والعابرين كما في مختلف مطاعم المدينة. لا تعلم سحر ذلك اللون القرمزي الذي استرق خيوط نظرها كل مرة. كل مرة يتشكل كطيف شبحي أو سحري. وكل مرة يرسم ابتسامة خفيفة

وبريئة فوق شفتيها البارقتين. كانت فعلا منتظرة لجلسة تأمل واستحمام بلون غروب الشمس مطلة من شرفة شقتها ومتأملة الآفاق التي تسمح بها الرؤية والجلسة. طقسها الوجودي الذي ألِفته. لكنه هذه المرة سيكون برفقة عباس. أصبحا اثنين في محراب الجلسة المنتظرة.

ـ غدا سنلتقي بالمحامي المكلف بنزاع الإرث، وكذلك بالمحامي صاحب الملف، السيد عزيز الحمدوشي. ما رأيك؟

ـ إن شاء الله.

...

نسيت تجهمها الذي انقبضت به حينما ولجت عمارة المحامي الموجودة بزنقة سطات بين شارع محمد الخامس وشارع علال بن عبد الله. الممرات المتشعبة يمينا وشمالا، الإهمال المطلق لإصلاح جمالي وكأن البناية إرث مشؤوم ينتظر انهدامه. لكنها تتفاجأ دائما حين تجد المفارقة كبيرة بين أناقة مكتب المحاماة والدرج الموصل له. استحضرت لوم التنظيف الداخلي والتلويث الخارجي الذي لطالما انتقدته مع تلامذتها أو محيطها في النقاش، ثقافة المجتمع السلبية في هذا الإطار.

دعتها الكاتبة للانتظار في القاعة: سيلتحق بكم السيد ربيع الدخيسي بعد نصف ساعة أو أقل.

تأمل السيد عباس السالمي المجلات الموضوعة فوق الطاولة الزجاجية المستطيلة. وجدها كلها قديمة، لكنها قد تثير بموضوع يهم متصفّحَها. كان يود اللعب مع الكلمات المسهمة، لكنه لم يجدها في بعض ما تصفحه منها.

حين رحّب بهما السيد ربيع الدخيسي وجلسا قبالة مكتبه العريض، توجّه هذا الأخير بابتسامة باردة لكنها حادة وجاهدة في جعل لغة الكلام والحوار دقيقة وواضحة. سمع مقترح السيدة سعاد ورغبتها في الاطلاع على ملف الدعوة المتنازع فيها حول أملاك والدها وأسرته، والموقف الاعتباري لها ولوالدتها فيها. استجمع معلوماته ورتّبها في تفاعل مع ما يسمع وما يتصفحه من وثائق متعلقة بالموضوع، وكذلك مع ما سبق له تناوله ومعالجته فيه.

ـ سيدة سعاد. مهمةٌ هذه الخطوة التي قمت بها، والرغبة في الاطلاع على الموضوع. ولابد أن تعلمي بأن هناك دعوة جديدة تقدَّم بها مفوض أمور أسرة أعمامك، المحامي المكلف بقضيتهم طبعا، تسلّمت نسخة منها هذا الصباح في انتظار ترتيب أشكال تنفيذها كدعوة مرافعة وردود على الادعاءات. وكما تعلمين، رغم وجود القانون والشرع فالجماعة متعصبة لما يتماشى مع هواها وثقافتها الذاتية، ومع ما يحقق صراعاتها. مثال بسيط، فالنزاع حول مقتل ديك ينفق عليه صاحبه في المحاكم ألفين أو ثلاثة آلاف درهم. أتساءل: كم ثمن الديك؟ ربما هذا ما ألاحظه في الدعوة القضائية الجديدة. لكن

اطمئني. الوثائق واضحة وسليمة في ما يخص ممتلكاتكما، كما تسلمتها من والدتك لالة عائشة. يبقى حق كل واحد في التنازع والترافع. سأتكلف برفع مشقته عنكما، خصوصا وأن عناصر كثيرة من مجموع الدعوة واضحة ولا نزاع حول قانونيتها وشرعيتها. جهاز القضاء يرغب دائما في التخلص من الشوائب في كل قضية. كلها جهد عملي ومهني لا طائلة منه. بمعنى دعوتهم أي بني عمومتك، لاسترجاع شقتك وسيارتك ومنزل الوالدة والأرض الفلاحية بضواحي منطقة بوفكران كلها لاغية.

أمامك سيدة سعاد وثيقتان: الأولى شكاية، والثانية دعوة قضائية.

- ولكن، سيد ربيع، لماذا كل هذه المشاكل؟ وهذه الدعاوى المتجددة؟

نظر مبتسما تجاه السيد عباس السالمي، وتأنى في اختيار كلماته التي سيلخص بها جوابه. يعلم حساسية الرد وخصوصية الحضور. ربما لا ترغب السيدة سعاد في تفاصيل. وحتى لا يتورط في كلام متهِمٍ أو لا أساس له من الصحة أجابها:

ـ أظن أن مجتمعنا المغربي، وربما ما شابهه ثقافة، لا يقبل أن تنال المرأة حقوقها وامتيازاتها التي يخولها لها الشرع والقانون. وهناك حتى إخوة يرفضون أن تستفيد أخواتهم من الإرث. كوني على يقين أن هناك دعاوى مشابهة عديدة، ولن تكون الأخيرة. كلها لا تقبل أن تعطي المرأة حقوقا مادية واعتبارية كثيرة. وهنا ادعاؤهم بأن التصرف الإرادي الذي قام به والدك رحمه الله، يعتبر لاغيا. كل هذا مجرد تماطل وتمطيط للوقت حتى لا يتم تقسيم الإرث المشترك المتبقى. قد يستغلون السنوات لجعل استثماره لصالحهم. قد يضغطون بهذا الأسلوب لكي تقبلي تعويضا أو بيعا بثمن بخس وزهيد، لأجل أن تتخلصي من مثل هذه المشاكل. كم من المشاريع بالملايير جمّدت بسبب النزاع حول الإرث... طيب، هذه دعوتنا التي سنحيّنُها بناء على ما قاموا به. وكل هذا مكلِّف ماديا ومعنويا.

ـ طيب أستاذ ربيع، أشكرك على مجهودك. قل لي ما المطلوب الآن. سأسافر لبضعة أيام. ما هو واجب علي أن أقوم به؟

ـ سأحتاج لحضورك هنا بعد عشرة أيام تقريبا. مناسب؟

ـ مناسب. شكرا جزيلا لك.

انصرف الاثنان بعد أن سلّم عليهما السيد المحامي وودّعهما في باب المكتب. قبْلها سألته السيدة سعاد عن محام اسمه عزيز الحمدوشي. يود السيد عباس الالتقاء به. ابتسم لهما من جديد: لن تضلا سبيله. مكتبه قبالة السوق المركزي بحمرية، وناديه الرسمي هو مقهى" لاتوليب" المعروفة. إنما الكاتبة سناء قد تساعدكما في الحصول على رقم هاتفه.

ـ إلى اللقاء وشكرا جزيلا.

ـ العفو. إلى اللقاء.

...

منذ مدة لم يتجول السيد عباس السالمي بين مرافق ومتاجر المدينة الجديدة (حمرية) بمكناس. ارتبطت ذكرياته داخلها بالمقاصف والمطاعم والفنادق أكثر من ارتباطها بالمقاهي العادية والمتاجر. لكن، ها هو الآن رفقة سعاد يلجان متجر الألبسة العصرية ويتفاجأ بأن سعاد تريد أن تُهديه بدلة عصرية جديدة تخليدا لذكرى هذا الحضور واللقاء والزيارة. رغم المشاكل المرافقة لمناخ اللقاء فهي تحب الحياة وتحب تحقيق ما يسعدها فيها. هي لا تنسى صديقا لها في العمل يشتغل على

السرد والكتابة في وصفه لها، وفي تتبعه لمسارها كشخصية امرأة داخل الحياة وداخل المجتمع والكون ـ هكذا يعتبرها موضوعا: تمتلكين ابتسامة صاهرة للألم والفرح، للحزن والسعادة. دمعتك التي تذرفينها لؤلؤة متدحرجة بتمهل على خدك، جامعة للبكاء والفرح. فأنت تبكين حين تسعدين جدا، وتبتسمين حين تحزنين. وكأنك، بل إنك شعلة الحياة التي ترفض كل تدمير أو تعكير، تذيبين جليد القيم لكي تزهر بصرخات الربيع والمرح والحياة. ولا نظراتك بعينين ساحرتين وفريدتين، توقعين بهما كل متجلد... قد يكفيك هذا يا سعاد في الوصف وإلا تحوّلتُ إلى عاشق لن تتخلصي منه ولو بزواج!

تضحك مع دواخلها، لكن الضحكات تتحول لتصبح فتحات هوائية مسموعة ومصدرة لرسالة انشراح. قد يتفاجأ المار بجانبها أو الجالس، وقد يستغرب المجالس لها أو المحاور، وفي لحظتها قد تحتاج لكي تشرح وتفسر. لكن كيف ستشرح ذلك لضيفها السيد عباس السالمي وهما جالسان الآن بالمقهى المقابل لمقهى لا توليب. ربما ستحذف فقط الجملة الأخيرة من تذكرها ومن بوح السارد المخترق لروحها ومجال عملها.

...

كانت الساعة تشير إلى الواحدة زوالا. ومع توقيت العمل والساعة الإضافية الجديدة، وقبل أذان صلاة الظهر الذي اقترب من خلال عبور كلمات حوارية في الفضاء المحيط، كان موعد اللقاء مع السيد عزيز الحمدوشي مناسبا، خصوصا وأنه يناسب ناديه أو مقهاه ودائرة رفقته هناك، وربما إدمانه في تناول البن وارتياد المكان وجمهور اللقاء هناك طبعا. وبين المقهيين تباين في الأجيال التي ترتاد فضاءهما. المقهى الذي اختارته السيدة سعاد كان أكثر شبابية في زبنائه وجمالية في ديكوره من الآخر.

قد يبدو على عجلة من أمره دائما، لكن السيد عزيز الحمدوشي ستكون هذه طبيعته. صوته جهوري ومرتفع في نبرته، وقد يعلق أحدهم ممازحا: وافق صوته مهنته، فيرد الآخر: وافق شن طبقة. وفي مناسبات قد يضيف الساخر: من منهما شن ومن منهما طبقة؟ تتعالى القهقهات، فتنسي إرهاق العمل ومشاكل اليومي عند جل الجالسين. إنما مجالسته لسعاد وعباس، وبعد أن تأكد من شخصيْهما بمكالمة هاتفية لم تنته معهما إلا مع وقوفه على طاولتهما وسلامه عليهما طبعا، سجلت المفارقة بين طريقة كلام السيد عباس والأخرى عند

السيد عزيز. كانت سعاد، المتأملة والمقارنة والمتابعة لمستجدات اللقاء والملف الجامع خلاله.

لاحظ السيد عزيز الحمدوشي الهدوء الملازم لطريقة حوار السيد عباس. رغم ذلك فإن عادته لم تتغير. يعتبرها دائما من قوة شخصيته وبصمة ممارسته للمحاماة. وذلك الهدوء الذي ينعم به خلال نهاية الأسبوع مع والدته سرعان ما ينقشع سحابه المظلل ليبدأ يوم اثنين جديد ببطارية الكلام والإسماع والإيصال والمرافعة.

تحققت السيدة سعاد من الرسالة الرقمية التي وصلتها عبر الواتساب. استعملت رسالة صوتية لكي تشكر صديقتها: تعلمين أن عطلة فصل الربيع أصبحت محددة في أسبوع، ونحن اليوم في اليوم الثاني منه. أحتاج لشهادة طبية لأدفعها لإدارة المؤسسة الاثنين المقبل. ربما سأكون في سفر إلى جنوب المغرب. المهم، لا تنسي أخذ الشهادة من العيادة ودفعها لكاتبة المدير. الله يحفظك آ لالة خدوج الغزالة. سيبقى التواصل عبر الهاتف بيننا. شكرا جزيلا.

عادت من مكالمتها وتواصلها لكي تلاحظ أن السيد عزيز بدا متصلبا وهو يستلم الملف الذي نسيه بمدينة الرباط. أجّلت معرفة السبب لكي تلاحظ أن لباسه القطني كان غير مناسب لدرجة الحرارة المعتدلة: فيستة، كبوط، قميص قطني...! كيف لا يتصبب عرقا.

رغم ذلك كانت مستملحاته تعاكس وضعيته النفسية، ولا تنتهي. يكلم نادل المقهى:

ـ تعلم أن فنجان قهوتي في الجهة المقابلة. أنظر إلى النادل مصطفى هناك. إنه يقطب ملامح وجهه بأكملها. لم يعجبه أن أنتقل إلى ضفة مقهاكم.

ـ مرحبا بك دائما سي عزيز. المحل محلكم كما تعلم.

ـ سأكتفي بإبريق شاي صغير مع قليل من السكر من فضلك. لقد شربت فنجانيْ قهوة هذا الصباح. أظن أن الشاي مناسب الآن. وشكرا جزيلا.

يتحوّل مباشرة ليوجه بصره تجاه السيد عباس. ربما يقرأ في ملامحه ما يريد قوله أو ما يمكنه أن يعلق به على محتوى

الملف. فما بدأه حوله لم ينته بعد. وكون السيد عباس ربما اطلع على محتواه، فماذا سيكون رأيه في ما قرأ؟

كانت الساحة تعج بالسيارات وحركتها، كما أن أشعة الشمس قد أصبحت عمودية فوقها، مما ينعكس على الرؤية وسلامة النظر. لذلك استحسن الجميع الانتقال إلى القاعة الداخلية للمقهى. وكأن جلسة التعارف قد انتهت وتمت بالخارج. وكأنهم على توافق حول موضوع اللقاء وجلسته. فما يزال له بقية وحوار، استشعر كل واحد منهم ضرورة ذلك. مرت مدة طويلة على فقدان السيد عزيز للملف حتى ظن أنه ضاع ولن يسترجعه أبدا. كان نسخة من نسخ عدة، كما شرح لهما ذلك، اختار محتوياتها بحسب درجة خصوصية كل شخص أو مصلحة سلمها إياه. في قرارة نفسه اعتبره نسخة عادية رغم أهمية الموضوع، وكم وثيقة إدارية موقعة كان مصيرها عند بائعي الفواكه اليابسة في التلفيف. كم منها خرجت لتستعمل فيه. هكذا كان تقليل السيد عزيز من درجة نسيانه للملف وأثرها. رغم كل التبريرات فإن شعوره الدائم يعطي القيمة لموضوع الملف ووثائقه ونسخه الورقية ولو كان في غنى عنها لامتلاكه مثيلاتها.

كما يعلم السيد عباس، وكما يشعر بذلك السيد عزيز، كان الموضوع محركا للفواجع والمواجع. طفولة وقد اجترحت بذكريات مشابهة، ضحايا وقد اطلع كل واحد منهما على قصصهم فاحتلوا فؤاده وعواطفه. وكأنه واحد منهم أو هم جميعا. لم يعطِ اهتماما للسؤال الذي استفز دواخله: ماذا تريد من هذا الاهتمام المتزايد بالموضوع؟

ـ كما ترى سيد عباس، الموضوع خطير جدا. وبحكم متابعتي لقضايا جنائية كثيرة في ردهات المحاكم ومرافعاتها، فإنني أعتبره جريمة متسلسلة بدرجة خطورة كبيرة. أحاكم الثقافة المتخلفة التي أنتجتها. لذلك أردت من جميع الوزارات والإدارات الاهتمام بالموضوع من أجل جعل حد رادع له، وباتر لكل تفكير في محاولة جديدة فيه. لكن للأسف، ما تزال بين الفينة والأخرى تظهر قضاياه وجرائمه، وضحاياه الكثر أطفال، ما داموا يقتلون ويسحلون ويعذبون. للأسف. لا أحب انتظار كل قضية حتى تخلف فيها ضحايا وتتراكم فيها آلام وأشكال تخلف. أنانية وسادية ستمتلكني مثلما تمتلك مهنة المحاماة التي قد تقتات على آلام الواقع وجرائمه.

ـ لقد قرأت تفاصيل الملف عدة مرات. في البداية كنت أريد أن أعرف صاحبه لكي أسلمه له. لكن، يبدو أنه سكنني بروحه فبتّ أتمعّن في كل جزئياته وأهتم برسالته. رسالتك طبعا.

عرفت شخصيتي تغيرات كثيرة بسببه. وكلها تغيرات إيجابية. طفولتي كانت بجبال الأطلس. تعرض قطيع غنمي للسرقة وأنا طفل صغير. كنت أتصوّر نفسي وأنا أقرأ الملف بفرضية أنهم جاؤوا لاختطافي واستعمال دمي وروحي في البحث عن الكنوز. ماذا كان سيقع؟ تخيلت نفسي وقد انتهت حياتي حينها. ما أعيشه الآن مجرد فضل صدفة نجّتني من محتمل ما يمكن أن يقع. أعيش موظفا بمدينة الرباط، والفاصل أصبح كبيرا بين منطقة ترعرعي وحاضري الآن، بين طفولتي ورجولتي، بين فضاء المدينة وحياة قبيلتي وأسرتي. كم من الأطفال في عشيرتي ما يزالون يعيشون على الترحال وقليل منهم من يستفيد من التعلم. لو فكّر المجرمون في اختطافهم لسهل عليهم ذلك، خصوصا وأن الحماية غير متوفرة للأفراد في أعالي الجبال وفيافي الصحراء. كنت مدمنا على الكحول، الآن توقفت عن تناوله وشربه. لماذا؟ لا أدري. ربما أريد أن أخصص ما

تبقى لي من حياتي لهذه الرسالة النبيلة التي بدأتَها مع هذا الملف.

...

فيما الطرفان في حوار متدرج للتعمق في الموضوع كانت السيدة سعاد تتفحص محتويات المقصف المعروضة كوجبات بمطعم المقهى. فكرت في جعل وجبة غداء على شرف الجميع.

ـ هناك جمعيات كثيرة مهتمة بالموضوع وبالدفاع عن الطفولة وحقوقها، لكن هدفي كان هو إلزام جميع الأطراف بتحمل المسؤولية. البحث عن إجراءات أشد من أجل استئصال الظاهرة. تحميل الكل المسؤولية داخل المجتمع، جعل التربية حاملة لهذا الوعي، المناهج التعليمية كذلك. البرامج الإعلامية أيضا. لا يعقل أن يبقى الحديث مناسباتيا مع الحدث فقط. مجموعة من الاتفاقيات الدولية حول الطفولة تعهدت الجهات الرسمية بتنفيذها، لكنها تبقى حبرا على ورق في غياب برمجة شاملة تأخذ مقاربة اقتصادية واجتماعية وتربوية وثقافية. حتى الإعلام يُستنزف تفاعلنا معه في الأمور التافهة أكثر من هذه القضايا المجتمعية الحساسة.

أضيف إلى هذا سيد عباس، وحتى لا أنسى، أن بعض الأطفال كانوا بالجنوب المغربي يتعرضون للخطف من أجل استغلالهم في الرعي، فيعيشون كعبيد، ولا يخرجون من حياة الصحاري وحصار المستغِلّين. الظاهرة ثقافيا ممتدة لثقافة الاتجار بالبشر واستعباد الناس. هذا مجتمع القرن الواحد والعشرين. ما رأيك؟

- أتفق معك سي عزيز، لذلك أردت مقابلتك شخصيا. سأقوم بزيارة للعشيرة المتفرقة بين نواحي ميدلت والريش. وربما قد يصلون إلى سفوح وسهول متعددة وبعيدة. أريد أن أقوم بواجب مماثل يحمي أطفالهم من كل هذه المحاولات. أريد أن أنقذهم من الأمية والجهل، وأجعلهم يستفيدون من تطبيب ومعاينة وضعيتهم الصحية وما يحتاجونه. سأجنّد طاقاتي لكي أتواصل مع جمعيات وإدارات من أجل تحقيق كل هذا. معارفي بالرباط متعددة. كانت تجمعنا الجعة وخمريات المساء. الآن سأجعل الجميع يستيقظ لكي يحارب أشكال التخلف التي تنخر مجتمعنا وثقافته، والتي تهدد براءة الأطفال داخله.

نسيت السيدة سعاد همومها وهي تتابع حوارهما ونبل تقاطع أفكارهما. اعتبرت نفسها ضمنيا منخرطة في هذا المشروع

وملتزمة به. فهي كذلك ضحية ثقافة هذا المجتمع. ابتسمت وهي تخترف الحوار بقولها:

ـ "آسيادنا"، الغداء سيكون بفضاء المطعم، هنا بهذا المقهى. أنتم مدعوون لغسل أيديكم والتفضل بقبول هذه الدعوة.

...

بعد زوال ذلك اليوم، وبعد استراحة قيلولة صغيرة احتاجها الطرفان من تعب أحداث ومن جديدها ومرتقَبها، رنّ هاتف سعاد حوالي الساعة الخامسة بعد الزوال. تفاجأت حين لاحظت اتصال صفاء بها. كانت هذه الأخيرة مستعجلة من أمرها. استغربت أكثر حين علمت بأنها تتصل بها من مدينة مكناس:

ـ لن آخذ من وقتك كثيرا. أريدك أن تحضري لي شعيرات خاصة بك! هل الوالدة معك؟

ـ لا. إنها الآن بمدينة بوفكران. ذهبت قبل يومين.

ـ هل عندك مشط خاص بها في المنزل؟

ـ انتظري. سأبحث عنه في غرفتها... ها هو. إنه مليء بشعيراتها بين حمرة وبياض.

ـ طيب. سأحتاج للمشط كما هو. لا تلمسيه بأصابعك! أنتظرك بمقهى مجاور لمحطة القطار بمكناس. عندي إياب قريب هذا المساء للرباط.

كان تنسيق السيدة صفاء في ما أقدمت عليه مع ابن عمها، السيد الحسين آيت البهي. أستاذ جامعي بمدينة بروكسيل عاصمة بلجيكا. سيرته العلمية والمهنية جعلته غريبا عن ثقافات عدة، وبالخصوص عن ثقافة وسطه المغربي. يؤمن بالبحث ويطمح لأرقى الجوائز التقديرية والتشجيعية العالمية. ولذلك يجده الجميع مبتعدا عن كل حوار أو كلام يتضمن سياسة أو صراعا سياسيا. توترت العلاقة بينه وبين ابن عمه مصطفى حينما أراد أن يناقش معه عبر الهاتف، في مرحلة أوج أحداثٍ، الوضع السياسي في العراق والشام، فقطع التواصل والمكالمة ووجّه له رسالة غير مباشرة بأنه لا يرغب في التواصل معه مستقبلا. وطبعا، ضحك الجل من موقفه تسامحا، لعلمهم بحساسيته من مثل هذه الأمور. حتى من قريب أراد أن يأتي عنده إيواء، ولما قالوا له اسمه أسامة، طلب بإلحاح وجدّية منهم قائلا: إذا أراد أن يأتي عندي فمرحبا به. لكن شرطي الوحيد هو أن يغير اسمه! هكذا يخشى كل نفحة سياسية ذات طابع صراع راهن أو تكريس إعلامي. قد يحاول شرح ذلك لمقربيه، لكن تعوزه العبارات الدقيقة ما دام لا يعيش إلا مع كائنات صغيرة غير مرئية داخل مختبراته الموزعة عبر العالم، والتي تشغله لساعات في البحث والتشخيص والتجريب...

أما علاقته مع صفاء فيسودها الصفاء التام. اسم على مسمى. يشجعها على الاستمرار في حقل تخصصها وعلى تطوير دراساتها إذا أرادت ذلك خارج المغرب. وحينما اقترحت عليه ما تريده وحادثته هاتفيا، أغرتْه بموضوعها، رغم أنها موخَزة بجراح هذا الموضوع. وكأنه وجد سبيلا لإسداء خدمة لوسطه المغربي داخل مختبراته التي يعمل فيها ومعها. سيكون شيقا كل هذا. عبارته التي اختتم بها مكالمته معها:

ـ الشجرة الجينية لآيت البهي تحت المجهر! ما داموا يرفضون الحديث في الموضوع سأوفر عليك مشقته. أولا أنا ابن عمهم. طيب. سننجز اختبارا يجمع لعابنا أو شعيرات منا. إذا وقع تطابق فأنا ابن عمك الحقيقي. إذا لم يقع سأكون أكثر من ابن عمك. أخوك الذي لم تلده أمك أو أمي، صديقك في البحث العلمي. ما رأيك؟ لكن انتظري. سأحتاج لتشريح كل عائلة آيت البهي حينها.

ابتسمت وهي تسمع لمقترحاته المندفعة شوقا وبحثا:

ـ طيب. كيف سأرسل لك كل هذا؟ هل علي المجيء إلى بروكسيل؟

ـ في الغالب هناك إرساليات عالمية مضمونة مثل فيديكس. لا أدري إن كانت عندكم بالمغرب. لكن إذا أردت المجيء فمرحبا بك. إذا استطعت ذلك سيكون أفضل. سأبحث لك عن حجز ذهاب وإياب. ما رأيك؟

ـ الرأي رأيك الآن. لقد شوقتني للأمر رغم أني أخاف من مفاجآت مثل هذه الأمور. لقد التقيت بسيدة في مثل عمري وشبهي، وكأنها توأم لي. كل العائلة رفضت إثارة الموضوع وتهربت منه. كلهم أنكروا وجود غريب أو توأم. أنا في حيرة. حتى من لالة رابحة، حينما فاتحتها هي الأولى ذهبت في وضع صحي حرج. سأبعث لك صورة عبر الواتساب تجمعني معها في مقهى بشاطئ الهرهورة.

ساد صمت خفيف جو المكالمة والحوار. نطق السيد الحسين حاسما الأمر:

ـ اسمعي، سأحجز لك تذكرة ذهاب وإياب في القريب. وعلى حسابي الخاص. اتفقنا.

ـ اتفقنا.

ـ صفاء!

نعم.

ـ لا حجاب!

ضحكت كثيرا حتى اضطر ابن عمها إبعاد السماعة عن أذنه. كان هو الآخر في ابتسامته العريضة التي تنوب عنده عن كل قهقهة معبرة. يعلم سياق المسألة وفكاهتها. وتذكرت صفاء ما وقع لبنت عمتها حينما أرادت أن تذهب للدراسة ببروكسيل. اشترط عليها الحسين لكي يقبل إيواءها مع أمها في عامها

الأول من الدراسة والتكوين أن تنزع حجابها. وكانت الرسالة غير المباشرة قد وصلت إلى الجميع. اضطرت ابنة العمة أن تنزع الحجاب من أجل ذلك. بقيت غرابة الشرط والاستغراب مطبوعة في ذاكرة الجميع.

شعرت صفاء بارتياح كبير بعد انتهائها من مكالمة ابن عمها حسين آيت البهي. على الأقل هناك من يمتلك وعيا متفتحا ومتعاليا عن عقد المجتمع. لكنها في دواخلها كانت تغلي بجمر وحمم هذه العقد التي تتشابك مع خيوط نفسيتها ولاشعورها.

...

كانت جالسة في زاوية صغيرة داخل مقهى ويسلان. المقهى شبه فارغ، وهي في زاوية جانبية مواجهة لنافذة مطلة على اللا شيء، على سور المحطة وفضاء السماء. ربما عيناها ركزتا على هذا اللا شيء، رغم تأثّث المشهد بعناصر أخرى. كانت تحيتها وسلامها مليئين بالتقدير والاحترام المفروض زيادة. كانت لحظة جد وحسم جديدين. شعرت بأنها تطفّلت على خصوصيات سعاد. ربما لن تقبل هذا التزحزح، وهذا الاهتزاز وهذا الارتجاج. ربما هي نفسيتها التي لم تنفجر بعد، ولم يبدُ عليها توتر بعد.

قاع بئر في مخاض مجهول. شعور بالذنب لما وقع لأمها لالة رابحة ستحاربه بضده، بالمضي قدما في التحقق وكشف الحقيقة المجهولة والمبهمة. ارتاحت لهذه الخطوة التي لن تزعج فيها الأنام، ولا تقلق فيها أفراد أسرة آيت البهي، أسرتها. سيكون السيد الحسين آيت البهي الاستثناء، لكنه المناسب للمساعدة في هذا الموضوع. شائبة مشوشة للرؤية لا بد أن تنقشع داخل مجهر المختبر.

شرحت لسعاد خطوتها، وبينت لها ما هي مقبلة عليه، وسفرها القريب. أخبرتها هذه الأخيرة بجديد صراعها مع أسرة والدها، ورحلتها التي ستبدأ غدا إلى جبال الأطلس المتوسط، ومهمة هذه الرحلة. وحينما عرجت سعاد على موضوع اختطاف الأطفال لأجل استخراج الكنوز، اقشعر جسد صفاء وتذكرت آخر ما طرأ لوالدها حمودة آيت البهي. ما سمعته عن استغلال

عصابة لصحبته في رحلات القنص لأجل تنفيذ جرائمها وتدبير مكائد وابتزازات. والأخطر من ذلك، جرائم القتل. أحست بأنها في قفص اتهام، معنية بسلبيات الموضوع، ما دام والدها قد تورط بدرجات في الموضوع. لم تفتح السيدة صفاء قوسا لذكر كل هذا. اكتفت بالسماع، ثم شكرت سعاد على كل شيء. حاولت هذه الأخيرة الإصرار على بقائها وقبول استضافتها بمكناس وتأجيل العودة للعاصمة الرباط. ألحت صفاء على سعاد أن تنصرف لالتزاماتها، لكنها رفضت وبقيت معها إلى حين وصول وقت إيابها وولوجها محطة القطار التي تحمل رسالتها وجواب أسئلتها المؤجل!

كانت خطوة كبيرة وقد قامت بها. شعرت بذلك. اعتبرتها زعزعة لثبات التاريخ وشجرة العائلة وقيمها. تعددت الأفكار والتخمينات والاستنتاجات في ذهنها خلال عودتها على متن القطار إلى العاصمة. فتحت حقيبتها وابتسمت مقطبة كسماء تحضر لعاصفة رغم أشعة الشمس المخترقة للسحب المتفرقة: مشط لالة عائشة كنز معرفة تاريخي الآن! يبدو أن إيماني بدور المختبرات في كشف الحقائق ونشرها قد تقوى برهانه الآن مع من لا يعرف قيمته.

ردُّها على مكالمة زوجها عصام الوافي أرجعها للواقع وتوقيت وصول القطار لمحطة أكدال الرباط.

...

...

ـ في الحقيقة، لا أدري ما أنا ذاهب إليه.

ـ عجبا ! أنت خططت ودبرت واقترحت، وحينما أسألك بمَ نبدأ، لا تمتلك جوابا إلا هذا !

ـ البوصلة مفقودة يا سعاد. هل هي رحلة في الزمن والمكان أم رحلة في الذات؟ لا أدري، حتى لو أنني وجدت كل ما فكرت البحث عنه. هناك شيء مفقود. ما هو؟ لا أدري.

ـ يبدو أن رحلتنا بدأت بفلسفة تيه جميلة، لكنها رائعة ما دمنا فيها نحن الاثنين.

ـ فعلا. يمكنها أن تكون تخلُّصاً من شيء ما. ما رأيك؟

ـ هه ! كلما ابتعدت عن الرباط صفا ذهنك يا عباس، وتجردت أفكارك. سأعشق هذا فيك كذلك. دعنا نستريح من الطريق بمدينة أزرو، وبعدها نخطط من جديد. ستكون جبال الأطلس مرتفعات عالية أكثر الآن.

ساد صمت جديد مناخ الرحلة والمسافريْن. بقي صوت هارب لموسيقى وترية أطلسية منفلتا بينهما. لعله يبحث عن وتر وأثر في مسامعهما، وهو الوتر المنبعث لهذه المهمة في كل استماع.

كانت يدا سعاد محتضنتين بذراعيها لمقود السيارة، وكان كف عباس منبسطا فوق فخذه وعيناه مركزتان على الخط المتصل وسط الطريق والذي يتموج مع المنعرجات المنحدرة والمطلة على منبسط الضيعات والمنظر العام البعيد للمدينة. احتاج عباس لفتح النافذة الزجاجية لاستنشاق هواء جديد، عبق اشتاق إليه. أغمض عينيه وترك النسيم البارد يحدث قشعريرة على مسامه وعلى صفحة وجهه. ربما هذا كل ما كان يحتاج إليه الآن. لم يبُح بما خطر على باله لسعاد. ستزداد اندهاشا وربما توترا وقلقا. بقدر شقاء القدر الذي ربط به خيوط الماضي والحاضر وأحداثهما، بقدر سعادة اللحظة التي يجب أن ينعم بها مع سعاد.

عبرت مخيلته وذاكرته وجوه وأسماء من عائلته وعشيرته المنتشرة هنا وهناك. من بقي حيا وأين هو الآن. يعلم أنه ساعد إخوته على الاستقرار بعيدا عن مجال الرعي والترحال. لكن بني عمومته استمروا في ثقافة عيشهم واقتصادهم. ما تزال أخته الأكبر منه أمّ ونواة الخيمة الكبيرة داخل بني عمومته، ما دامت قد تزوجت من ابن عمها منذ عقود. هي الآن جدة كذلك، لكن حياتها لم تستطع أن تخلّصها من شقاء وظروف الترحال. مثلها مثل آلاف الرحل الذين ورثوا حياة الترحال عن أجدادهم وآبائهم.

لا تستقر في أرض معينة، رغم أن هذا الاستقرار في مكان معين الآن قد توزع بين فصول السنة، ما يجعلها تتخذ من المدينة مقاما موسميا بعض الأحيان، عند إخوتها أو العائلة

الكبيرة هنا وهناك دائما. قسوة الطبيعة قد تفرض ذلك، بل قد تجد نفسها ملكة للرحل في ضيافة الحضر. تجدها تضحك رغم إرهاق السنين لصحتها، وهي تسمع مثل هذه التعليقات ممن تعلّم من صغار وشباب الأسرة الكبيرة بالمدن. قد تكون مملكتها فعلا، ما دامت هي الخيط الرابط لكل تواصل ولكل ترحال ولكل بيع وشراء. وكم من المشاكل، رغم حضور الرجال فيها، كانت كلمتها فيها مسموعة ومأخوذة بعين الاعتبار في التشاور.

أنواع صراعات تنشب بين القبائل داخل المراعي في إطار الانتجاع الموسمي بمختلف المجالات الرعوية الجماعية، علّمتْها أن الحلول تكون استباقية رغم عدم إلمامها بالمصطلحات اللغوية الدالة على ما تقدر عليه فيها. وما دامت المشاكل تتكرر، وتأخذ طابعا أكثر خطورة، بل قد تصل شظاياها إلى المحاكم وإدارة السلطات وخلف قضبان السجون، كان عليها أن تقي كبدها من كل انفجار يمزق أحشاءها. تصاهر أولادها بتوجيه وإيعاز منها مع أسر تنتمي لمجال زراعي واستقرار عيش فيه. تنامت العلاقات الوطيدة مع قبائل مستقرة تشكل محطات استقبال خلال مواسم الترحال. أصبح شكل الحياة ألين الآن، وأبعد عن الصراعات والأزمات التي مرت منها الجماعة الرعوية المتنقلة. لكنها ما تزال مستمرة عند آخرين.

يسائل السيد عباس نفسه: أهذا كل ما تبقى لي من انتماء؟ إخوتي وقد انتقلوا للتجارة بمدينة ميدلت والريش. فماذا عن الآخرين؟ ستكون زيارة أختي الصالحة مفتاح هذا التيقظ الجديد

المرتبط بكوابيس الواقع التي زعزعت طفولتي القابعة داخل فؤادي.

...

لم يمض على بداية الرحلة سوى مسافة صغيرة بمقارنة ما ينتظرهما في جولتها عبر ربوع الأطلس المتوسط، وربما يصلان معها إلى امتداد الصحراء ومشارف الأطلس الكبير. كانت سعاد متقنة البحث في الأنترنيت، وجاعلة له مجالَ ما تحتاجه من جديد المشتريات والمجوهرات والعوالم التي تعرضها المواقع والأشرطة المتضمنة لذلك. لم يفتها داخل كل هذا أن تبحث عن مسار هذه الرحلة وتسجيل المعلومات المفيدة حولها. فبعد تناولهما لوجبة الغداء بمطعم متموقع في مفترق طرق بين ما تؤدي إلى مدينة إفران واتجاه غابة القردة أو إلى المرتفعات المؤدية إلى مدينة ميدلت، كان الاختيار واقعا على مأوى تحتضنه الطبيعة وأشجار الغاب والمنظر العام المطل على مدينة أزرو ومجالها الطبيعي الخلاب.

اختيارهما للرحلة في هذا الفصل كان موفقا فعلا. ما يزال أثر ثلوج يكسو مرتفعات بعيدة، والمجاري أكثر تدفقا وخريرا بمياهها الذائبة. أشكال الاخضرار أعطت تغذية بصرية جميلة وخلابة، احتفلت داخلها الأشجار بوريقاتها وتبرعمها وإزهارها المزركش داخل الضيعات المنتشرة وفي امتداد البصر الممتلك للرؤية. لقد بدا هذا الهواء نقيا وقويا. ذلك ما علّق به السيد عباس وهو يفتح نافذة الغرفة المطلة من داخل الإقامة على المشهد الجديد.

...

كان حلم السيدة صفاء الطفولي هو ذلك السفر في الفضاء والكون، خارج مدار الكرة الأرضية. صاحَبت النوارس عبر شواطئ مدينة الصويرة وعلى أبراج وأسوار مدينتها العتيقة كما مينائها. كانت تقضي الساعات في ملاحقة هذه الطيور الموقعة للانتماء للماء وللبر كما لمدينة الصويرة على الخصوص. كانت رياح المحيط تلحف وجهها وتسافر بما انسدل من شعرها مراقصة له. قد تغمض عينيها فتحس بجمالية اللعبة ووخزات حبيبات الرمال التي تتكتك ساقيها العاريتين. كلما كبُرت كبُر معها ذلك الشعور بانتمائها وهويتها المشكلة في فضاء وثقافة هذه المدينة. سمفونيتها التي بقيت خالدة معها في جميع لحظات حياتها، ونومها ويقظتها، أن تخترق دروب المدينة العتيقة الحجرية منبعثة من خلالها أمام بوابات البحر المتعددة وإطلالات الأطلسي الممتدة مع كل برج وكل فتحة وكل هبّة ريح ونسيم وكل صوت نورس ونعيقه. هو جسدها الذي تشعر بتحرره بين لعبة الجدران المنغلقة و بوابة السماء الزرقاء المنفتحة.

لم يكن سهلا عليها أن تنمحي منها ومن ذاكرتها ومن الوجود الحي لوجدانها وشخصيتها. الصويرة عندها هي ذلك العالم التاريخي المجهول والغريب. ألم تكن هي منطلق الرحلات الأولى إلى أمريكا؟ هذه القارة الجديدة التي قلبت موازين القوى عالميا؟ اللوحة ريح ونورس، وما بينهما صفاءُ راقصةً وأخمص قدميها متحدٍّ للجاذبية.

ـ ما داموا قد رسموا لأفق الأرض حلما وتاريخا، سيكون لي الفضاء وعلو هذه السماء لكي أحلم وأحلق وأطير. سأتحدى وأتجاوز النورس في مقام علياه.

هكذا رسمت حلمها الذي تطور تشكيلا ثقافيا وشخصيا عندها. لكنها الآن وهي داخل عالم الأتوميوم بمدينة بروكسيل

البلجيكية، والذي وعدت به ابنها لزيارته ونقل تسجيل مرئي حي له عبر الهاتف، تكتشف حقيقة جهلتها منذ البداية، رغم تعلمها ووعيها. تندهش لكل ذلك. كيف انتقل حلمها من عالم الفضاء إلى عالم الميكروسكوب. تندهش لانتقال الحلم مِشعلا بين يدي ابنها الآن، خصوصا حينما أصبح يمتلك تلسكوبا في شرفة غرفته يتأمل به النجوم والسماء، التلسكوب الذي اعتمر مقره ومكانه، ومشروع البلانيتاريوم أو القبة الفضائية، الذي ينسق لإنجازه مع جماعة أصدقاء ومؤطرهم في علم الفلك داخل نادي النجوم بمدينة تمارة.

اتضحت المسارات. عالم الذرة الذي توجه هذا الهرم الهندسي رمزا لمستقبل بشري أفضل ملؤه الوئام والتقدم والسلام وتجسيد الإرادة الديمقراطية بين الدول من أجل تحقيق هذه المبادئ، وعالم الفضاء الذي بدأت اهتمامات ابنها تغزوه بفضول وشوق واندهاش. كلاهما في محبة الحياة. شعور جعلها في حنين لاحتضان زوجها وابنها. لا تدري سببه الملح، لكن الرحلة تمضي بها قدما إلى اكتشافات متجددة.

وتبتسم صفاء للمفارقة بين مجهرية المختبر وكونية التلسكوب في الرحلة والاكتشاف. يوما ما، ستلاقي وتجمع بين العالمين: الميكرو- بيولوجي والذري، والماكرو - كوني الفزيائي. وكم تعجبها الآية من القرآن الكريم: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم).

لكن واقع الأنفس أخذ منها زفيرا محموما حينما تذكرت بأن رحلتها هذه لم تكن سياحية محضة قد تفلسفها بطموحاتها الشخصية والتربوية مع ابنها. عليها أن تعود لبلدها المغرب، وأن تنتظر أياما قبل تسلم نتائج التحليل الجيني وتستنتج. ولكن، ماذا بعد الاستنتاج؟ أي احتمالات وآثار وقرارات؟ شقاوة أسئلتها التي لم تترك لها بالا مرتاحا.

ها هي الآن وقد خصصت يومها الثالث لهذه الزيارة التي وعدت بها ابنها، وقد بثّت مشاهدها مباشرة عبر الواتساب معه، أحسّت بأنها طهارتها التي قد أخرجتها من درن ومن دوامة احتمالات الواقع وحقيقة تاريخٍ هو تاريخها، رغم أنها قد تكون حقيقة صادمة وغير مرغوبة.
تغرورق عيناها فتقرأ معها بلاغها: يكفيني هذا العالم، وهذا الحب داخله لكي أعيش سعيدة. خلفية الحياة لا تعنيني في شيء !
تستغرب من مشاعرها الجديدة وتمضي إلى الأمام. فقد عادت إلى العاصمة الرباط بعد أسبوع من سفرها. وطبعا، طعم الهدايا والشوق، كله عوّض الغياب والاستغراب والاستفهام. كانت الفرحة والضحكة والعناق، وكانت ابتسامة زوجها السيد عصام وهدوؤه المعهود مميزين هذا المساء. فيما رحلة صفاء كانت حول الجينات، كانت رحلة عصام الجديدة حول سياسة البذور بالمغرب كما بالعالم الآن. كانت رحلة شخصيته التي تمتلك السيدة صفاء اطلاعا واسعا على صفحاتها، تأخذ طابع العتمة فيما استشكل وانطوى من أسرار أو تغييبات ربما غير مقصودة فيها. ولابد لصفاء أن تعيد تصفحها، وتعيد القراءة والكتابة والاستفسار معهما.
لمحت شروده. بحدسها وضعت نقطة الاستفهام فوق صفحة الماء، فسمعت وقع أمواج آتية وهديرٍ قد يكبر صوته ويدوي صداه. قلّصت من كُلِّيّ حركتها وحيويتها التي فرضها رجوعها من السفر ولقاء من تحب. امتد كون تفكيرها في غياهب مجهول معلوم. هل سيكون موضوع التحليلات الجينية هو المؤثر؟ أم السفر المفاجئ، أم ماذا؟ سؤال ما بعد الوصول ونوم ابنهما وقد تم تأجيله الآن.
وهي تعلم ميول تفكير عصام السياسية وانخراطه في تحليل للسياسة الزراعية داخل بلده كما تنسيقه مع مثقفين ومحللين

يجعلون فوق الميزان جل القرارات والتدابير التي يلاحظونها داخل الإدارة المغربية وتوجيهات أصحاب المصالح معها ولها.

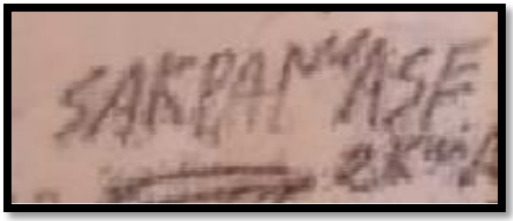

SAKPA ٣AçE

...

يستغرب السيد حمودة آيت البهي لهذه الرموز. رغم أنه قرر رفع شكاية وإخبار أجهزة الأمن والسلطة بما تورّط فيه، ورغم كون ما تورّط فيه تلطخت بملفه جرائم قتل على ما يبدو، حيث لم تكن مجرد طقوس استخراج كنوز محتملة، ها هو الآن يقبض على جمر ولا يريد أن ينفك من ملامسته والبحث عن طرق لتذويبه جليدا وتطويعه. فضول بدأ يفسر له سبب اختياره لهذه المغامرات منذ بدايات حياته الأولى وحتى الآن. هو الشغف، هو حب الاستطلاع، هو الرغبة في اكتشاف المجهول. ارتأت أمامه ألوان الطبيعة والمناطق العديدة التي زارها واخترق وديانها وأنهارها وشعابها وأدغالها وأصواتها. عالم القنص الذي جعله يحمل بندقيته ويتقدم إلى الأمام في شجاعة مواجهة وتحدٍّ كبيرين، بين الجبال والسهول والصحاري.

فهذا الشعور بالقوة لا يدركه إلا من شارك وخاض غماره. بدت له تفسيرات لربط الميل للقنص بالميل لاستخراج الكنوز. هكذا ارتعدت أنامل السيد حمودة وهي تفتح دولابا خاصا وغريبا. بسط تلك الخريطة فوق الطاولة. لم تكن سوى طاولة غرفته الخاصة داخل منزل الضيعة بعيدا عن الأنام وعن مدينة الصويرة وعن احتمال اقتحام أي كان لعوالمه. ما تزال زوجته لالة رابحة في وضع صحي حرج. لكنه وقد عمِل بنصيحة أجهزة الأمن والبحث القضائي بالبقاء بعيدا عن الأنظار حتى تتجلى حقائق الأحداث التي رواها وكذا الأشخاص الذين تورطوا فيها وورطوه بتدبير محكم في تلبّسها، لم يستطع الكف عن هذا الشغف. لو كان مجرد هواية فردية، تنبش وتنقش التراب وتحفر أغوار الكهوف وتعانق حرية خاصة؟ لو لم تكن هذه الأرواح التي ذهبت ضحية، أطفال أبرياء؟ لو لم تكن هناك عصابات تتكالب لصنع مثل هذه الجرائم؟ دمعة واحدة باردة سحقت خده الأيمن، استشعر معها أن عقله بدأ يؤنّبه على المغامرات غير المحسوبة. وكأنه سيجلس أمام هذه الخريطة الآن، وسيبوح لها بما اقترفه هو عن نية وقصد، وعن حصته من تحمل المسؤولية والحساب والعقاب فيما وقع ويقع.

ما تزال عيناها اللوزيتان ماثلتان أمام فؤاده. سره الكبير الذي يخاطبه كل حين ويستحضر روحها وأنفاسها. العينان اللتان سحرتاه وجعلتاه يستسلم لقدر الرغبة والشوق والاختيار لأي طريق يحقق لقاءهما المتجدد. في كل مغامرة كان غرضه تحدي هذا الحضور الغريب والمزعج. وكأنها هي التي تدعوه للاستمرار فيه. وكأنه يسحق ذكرى الفقدان ومرارته بالمخاطرات الجديدة التي يقدم عليها. قد يكون ضميره الذي يدفعه إلى تأدية ثمن ما. لا يدري ما هو هذا الثمن، ولِمَ عليه أن يؤدّيه. هذا اللاشعور الذي يشكل عوالمه الداخلية الدفينة، لا يدركه أحد من محيطه ومرافقيه. بقي سرا. جوهرتاه

المفقودتان اعترافا بالحقيقة الغائبة. ما أنجبه معها وشتت فؤاده بينهما. لم يجرؤ على نطق اسمها خلال ما تلا فاجعة فقدانها بعد أن أنجبت التوأم

...

ما تبقى من سيرة البحث عن الكنوز والقنص: رأس خنزير محنط ومعلق على الجدار، رأس أروي مقابل له، وصورة مكبرة التقطها أواسط اربعينيات العمر بلباس خاص بالقنص وقبعة وحذاء جبلي، وسلاح قنص يمسكه من قبضته وفوهته، دولاب داخل الجدار خلف جلسته الأريكية مقفل وصامت على تاريخ خاص كاتم لأسراره. زربية حمراء مزينة بقطع معدنية رقيقة وخطوط أفقية متدرجة بين أخضر وأصفر وأبيض وأسود... ما تبقى له من ذكرى أم التوأمين... بساط وَبَري بجلد جمل بُنّي اللون مفتوحَه.

يجلس في ظلمة خفيفة تحاربها شمعة متراقصة في ضوئها ومتموجة مع الظلال. وصمت لا يفسره سوى ذلك التركيز بالنظر في وثيقة أمامه. هو مخطوط جلدي رقيق جدا. امتلكه منذ عقدين من الزمن. كان من بين العوامل التي جعلته يستمر في فضول البحث عن الكنوز. ربما أراد خبرة أكبر قبل أن يقتحم بمحاولته فك رموزه وتنزيل البحث عن سحر الكنوز المدفونة. شعر بأن العمر والزمن والأحداث، كلها عناصر تهدد وجوده ووجدانه وكذا استقراره الداخلي وأمن روحه. وكانه لم يعش ولم يحقق كل ما حقق ما لم يكتشف سر هذه الخريطة.

ليست بورقة عادية يمكنها أن تتمزق وتنمحي فتسجل بذلك عدم جدواها واللا ثقة في فحواها. إنها من صنع جلدي نادر، لم ير مثيلا لها. دقيقة في رسومها، واضحة في حبرها وعلاماتها. حتى من رائحتها فهي فريدة من نوعها. لا تتغير وليست دالة على شبيه لها من جلد الحيوانات التي ألف أو تلك التي اصطاد. يقارن بنظر مقطب بين فكرته الأخيرة وهو في ملمس لها، وبين البساط الجملي، فلا يجد تقاسما بينهما. عتمة الغرفة اظلمّت معها ذكرى كل الأشياء التي تحتويها. رغم أن ذاكرته مليئة ودقيقة وضابطة لتفاصيل ما مضى، وتفاصيل هذه الأشياء، ها هو يغيبها ولا يستحضر إلا هذه الوثيقة ـ الخريطة، يوم اشتراها حمَلَتْ هويتها وتسميتها "الكنز الدفين". كان شيخ قبيلة صحراوية بالجنوب يمتلك خزانة كتب ومخطوطات قيّمة ونادرة. كانت عيون عالم البحث والمعرفة والتاريخ ـ وما تزال ـ تهتم باختراق رفوفها ودواليبها. أكثر من أربعة آلاف كتاب ومخطوط لم تقبل الوزارات الوصية على الثقافة وعلى التراث أن تجعل تحبيسها باسمه وأن تحافظ على مقامها الجغرافي عنده. أرادت أن تتسلم وتنقل كل سيء إلى العاصمة وتشكر وينتهي ما يتم التفاوض حوله.

رفض الشيخ وأبى، فأغلق الفضاء وشمّع الباب وبقي ينتظر ساعته حتى تحين، حتى يلتحق برفيقه الأعلى. حينها سيهون عليه كل شيء في هذه الدنيا، حتى هذه النفائس والمخطوطات. لكن الوثيقة أو الخريطة، كان قدرها قبل هذا وذاك خارجا ومبتعدا عن كل هذه التقديرات والتخمينات والقرارات. انفلتت كسمكة من شباك صيد. التقطتها أيادٍ أخرى. ولم تكن سوى يدي

ابن الشيخ الذي كان مدمنا وكان كل مرة يبيع مخطوطا أو كتابا بأبخس الأثمان. وكان لقاؤه بالصدفة في رحلة صيد مشتركة، جمعت الطرفين: البائع والمشتري.

لمام المعلومات حول ما سبق، وقبس التساؤل حول ما سيأتي ويلحق. مصير الوثيقة؟ ! لا قيمة لألف درهم التي اشتراها بها آنذاك. القيمة لهذه المدة الزمنية التي استغرقها صبره عليها حتى يفض بكارة أسرارها مثلما فض بكارة عذراء فوهبته ما وهبته. ربما آن الأوان لذلك قبل أن يعلن انتهاءه من كل هذه الرحلات في الذات والوجود والنفس. ربما سيذهب إلى بيت الله الحرام، وبعدها يلازم عبادته وزاويته المفضلة معها بمدينة الصويرة، مُستقرُّه ومستقر أسرته طبعا.

ساعدته العتمة على إبعاد كل الأسرار الأخرى التي يدفنها تاريخه الخاص، فقط هي أسرار هذه الخريطة المنيعة، العصية على فكها، ما يستأثر باله وشغله واهتمامه. لابد من جرأة وخطوة. وحيث لا ثقة في أحد في هذه الأمور، سيتولى زمام ما صممّ عليه، الاتصال بالأستاذ الذي تعرف عليه عبر وسائط. ربما يستطيع فعل شيء مقابل بعض من المال. ربما لن يكون جشعا ولا مجرما في اجتهاده وإشراكه. شريك أم أجير؟ المكالمة الهاتفية هي التي ستبدأ معها تدرجات الجواب ! ما طمْأن السيد حمودة آيت البهي أكثر، هو بُعد المتواصل معه عن مدينته وقربه من مكان احتمال وجود الكنز الدفين. لابد من سرية تامة وخطوات آمنة، بعيدة عن الأنظار، خصوصا مع تعلق سيرته بما تورط فيه مع جماعة إجرامية في الميدان.

حبس أنفاسه. العملية خطيرة فعلا. ستتم داخل دائرة حبل ناري، ولابد من السلوك بين ألسنة لهيبه وعدم الاحتراق بها.

...

إنها خريطة سحرية، استطاعت أن تزيح هذا التهديد الذهني، وأن تمسه بهوسها، كمدمن يعود لكأسه بعد كل حين. صوّر نسخة منها بكاميرا هاتفه المحمول وقرر بعثها لشخص يثق فيه ويمكنه أن يساعده في تفسيرها.

...

كانت مذكرة السيد حسن، صديق المحامي السيد عزيز الحمدوشي، هي التي تضمنت سيرورة أحداث كما رواها، مرتبطة بقصة السيد آيت البهي. سيقوم بتسليمها له بعد مدة، وسيعتمد منها ما سيضمنه الملف من جديد كعناصر تؤثث الحكاية والقصة، إن لم نقل تلك المرافعة الأدبية التي أرادها السيد عزيز في نهاية المطاف، إلى جانب المرافعة القانونية والقضائية. ستجتمع عناصر عدة لكي تركب لنا الحقيقة وتنسجها واضحة كمرآة لم تكن في يوم ما شظايا مجزأة. يوم تلقى السيد حسن، هذا الخيط الرابط الجديد في الأحداث والقصة، مكالمة هاتفية من السيد حمودة يطلب منه مساعدة لقراءة خريطة ما:

الحدث المباشر:

بتاريخ 27 يوليوز، تلقيت هذه اليومية التي أكتب فيها هذه السطور كهدية بيضاء من أخي عبدالله الذي يعلم شغفي بالكتابة وبخطها في كل حلة جميلة، خصوصا إذا كانت مذكرة تحمل معها يومية وتتزين بأحلى شكل في لونها وأوراقها. ستحتاج لبصمات كتابة جديدة طبعا. فرِحتُ بلمسها وتلقيها كبشارة وحي وإلهام جديد سيرتبط بها. فأل وجّهني إليه كم من مرة نفس الإهداء من كم من الأشخاص. كم من مرة كانت (أجندات) متلقاة

لأجل سحر عيني المهدى إليه، عساه يكتب ما تشتاق إليه أفئدة الذين أهدوه إياها.

وكأنه معدن خام سيق لصانع أو صائغ، وينتظر تشكيله أو تحويله. هي لعبة مشتهاة طبعا، منذ سنين عديدة. وكم منها أصبحت مسكونة بشخصيات وأرواح، وصور وأشكال، وأحداث وحقائق، ووقائع وأخيلة متنوعة. أصبحت معها جل هذه المذكرات مخطوطات نفيسة وحاملة لشتى شجون وأجناس كتابة وإبداع.

تلقيت مكالمة. كانت من طرف شخص أعرفه في الحياة العامة والعلاقات الاجتماعية المتنوعة، هو السيد السعداوي. لن أدخل في تفاصيل الشخصية وتحليلها بما أعرفه عنها. ربما سأحتاج لذلك إذا ما تعقّدت الحكاية:

ـ سي حسن، كيف الحال. هناك شخص يقوم ببحث تاريخي حول مدينة مولاي إدريس زرهون ووليلي. بالمناسبة فإن أباه ضابط في الشرطة وصديق لي. سألني عن اسمك بالضبط وعن إمكانية التواصل معك لأجل المساعدة العلمية. انتظرت حتى أكلمك لكي أعطيه رقم هاتفك.

شعرت بغرور خفيف، أو اعتزاز سريع الحضور بالذات ما دام هناك من يقدر كفاءتك وغيرتك على العلم والمعرفة ويثق في إمكانية مساعدته في مجالهما.

ـ لا مشكلة. في سبيل البحث العلمي، مرحبا. ما اسم أبيه؟

ـ لا أعرف اسم أبيه. أتعامل معه في التجارة فقط.

بعد استغراب مباغت لا يسعف الهاتف خلال المحاورة في تتبعه باستنتاج مناسب، أجبته:

ـ لا مشكلة في ذلك. يمكنك إعطاؤه رقم هاتفي. سأنتظر مكالمته.

جاءت المكالمة بعد ساعة تقريبا من رقم هاتف محمول جديد:

...

الغريب أن الشخص لم يكن ضابط شرطة، وأنه لا يوجد ابن يحتاج لمساعدة في البحث العلمي. فاجأني بقوله:

ـ ... سآتيك من الآخر أستاذ حسن. أبحث عن كنز دفين، وأريدك أن تساعدني في فك رموز خريطة وكتابتها. وستكون معي في ذلك إن شاء الله تعالى.

ـ لا مشكلة، ولا حاجة لأكون معك، ابعث لي صورتها وسأحاول المساعدة.

انتهى الحوار والتواصل، وجاءت الرسالة ـ الصورة ـ الخريطة عبر الواتساب. أصبح الشخص المسجل الآن في قائمة المعرفين في هاتفي باسم : X. إذا كنت أريد أن أُشكّل الكتابة سأجعل هذا الحرف اللاتيني برمز (اللاشيء) كما جعله الروائي أمين معلوف اختراعا رياضيا عند شخصية عمر الخيام في روايته (سمرقند). لكنني اختصارا وباعتبار توظيف الحروف اللاتينية أكثر في مذكرة أرقام الهاتف المحمول، أصبح الشخص بهوية: x .

كل شيء وقع بسرعةٍ سابَقَتْ كلَّ تريث أو تفكير في قرار أفضل مما اتُّخذ. كان من الممكن ان أقول بسهولة: اسمح لي، انا لا أعرف شيئا عن الكنوز الدفينة. وسينتهي الأمر بالاعتذار دون اتخاذ خطوة مثل هذه. لكنني بدافع فضول معرفي جديد، وعطش للاكتشاف، وتبريء نيتي في المساعدة ولو كانت فيها مخاطرة، قلت نعم، إن شاء الله تعالى. أبديت عدم طمعي ورغبتي في حضور شيء واقعي يلي البحث. كانت مثاليتي تضبب على

العقل الرؤية الواقعية والحقيقية، والاحتمالات التي ترتبط بما سيلي.

أصبح السيد X، حاضرا في تفاعلي وقدريات غدِي. هو الغريب الجديد. كمن يبحث عن مادة جديدة في الكتابة، كنتُه أنا. وجدتني إذا متعطشا وبفضول معرفة. لكنني راجعت الأسئلة الكثيرة التي طرحها عليّ ذهني، والتي تتعلق بأخطار المغامرة. الآن أصبحت في تعامل مع أصحاب الكنوز ! استغراب ما بعده استغراب.

وسبحان الله. قبل ثلاثة أيام، كان لي نقاش مع أصدقاء بالمقهى حول ظاهرة الكنوز والبحث عنها. سجلنا واستحضرنا أحداثا ومحاولات قتل وسجن وتورط أطراف مختلفة، وعجائب ومرويات حول جبل زرهون. ها أنا الآن أفكر في جعل عنوان أولي: جبل الكنوز. وبلغة فرنسية ستجلب لها عيونا طامعة: La montagne aux trésors.

وصلتني الصورة عبر الواتساب واستفزتني في عقلي وتفكيري. كنت أظنها بحروف عربية وبخط معقوف ومعقد يحتاج لتمعن مركز كأي مخطوط تاريخي أو علمي تعاملنا معه

في الجامعة أو خلال مراحل الاطلاع المختلفة. لكنه بدا بحروف غريبة. هي رومانية أو فينقية أو أمازيغية او ما شابه. خمسة أسطر تحتاج إلى فك رموزها وحروفها. يتضمن السطر الأول 38 حرفا... وهذه شاكلته:

C U P ₣ Γ....

يلاحظ أن الرسم الأول كأنه طريق ومنعرجات. بدايتها من أسفل مقطعة وبخطوط أفقية ومرتبطة بخطين جانبيين، كأنهما أشجار أو اتجاهان مؤديان إلى نقطتي انطلاق بسبعة أحرف في الأعلى وخمسة أحرف في الأسفل، مع كل نقطة انطلاق. هكذا يتعقد التعبير وهو يحاول تربّص واستنتاج ما يمكنه فك طلاسم هذه الخريطة. يثيرني في الطريق المرسوم وجود إشارة وعلامة أعلى والتي منها تبدأ الطريق الجانبية المزينة بأوراق شجر أو ربما هي أشجار زيتون أو ما شابه. إنها علامة وجدتها مطابقة في البحث عن الرموز في الحاسوب: .⊗. وما يؤدي إليها من أعلى كلمة بخمسة حروف، وأسفل بأربعة حروف. Ł ₣ β A Γ...

وبدأت رحلتا الكشف والاطلاع. وبدأ الخوف المرافق. هواجس كثيرة ارتبطت بموضوع الكتابة. قبل سنتين أو ثلاث سنوات هي، فكرت في الكتابة عن رحلة عراف وصارع جن. اخترت صديقا لي من مدينتي. بحكم العلاقة التي تجمعنا والجلسات التي نتقاسمها داخل المقاهي وكراسيها أكثر، وجدتُني أفكر في نقل تجاربه وتحويلها إلى وصف وقراءة وتحليل، قراءة منكتبة. ما يرويه لي، وما أسمعه عنه كمحكيات جعلني أفكر في اختراق مشاهد تجمع بين عالمين، عالم الإنس وعالم الجن. وفي ذلك انتقال إلى العجائبي والمدهش. فلحدود هذه اللحظة، لحظة الكتابة سمعت الكثير عن عالم الجن وعن العرافين وعن صارعي هذه المخلوقات التي جعلها النص الديني مخلوقات من نار، في حين كان الإنس من طين، والملائكة من نور.

سمعت عن قصصهم وعوالمهم المتنوعة بين النص الديني والمحكي الشعبي والثقافي الإنساني. اطلعت على تفسيرات علمية وموضوعية، على تأويلات نفسانية وطبية. كنت الذي يركب الفلك دون الغوص في أعماق بحاره التي تحمله. قلت: لماذا لا أتنقل عبر الرواية المكتوبة وأصوغ المتخيل قصة ورواية. لكنني إلى حدود الساعة لم أستطع جذبه للتجربة.

وكأنه بحدسه فطن لمرادي ابتعد عني مسافات مناسبة وجعلها بقياس دون تحقيق ما أريده في السؤال والطلب.

كان همّي طبعا إنساني أكثر. أؤمن بأنه كلما تطوّر العلم والتفسير العقلاني والعلاجي الطبي العلمي المعاصر، كلما انقشعت تلك السحب المكفهرة التي تضبب الفهم وتعكّر صفاء العقل. كيف أخلّص الإنسان من السحر والشعوذة ومن الاستغلال البشع والخرافي والمغلوط في تفسير ومعالجة الظواهر النفسية والعصبية والسلوكية العامة عند كل واحد منّا. قارنت مع ما وقع في الغرب. كيف انتقلت نسبة تفسير الأمراض بما هو سحري إلى ما هو طبي وعلمي، بفضل تطور العلم والطب والتحليل النفسي، بنسبة سبعين في المائة استطاع الإنسان أن يجد تفسيرا وتحليلا موضوعيا للظواهر النفسية والعصبية. ولعلني هكذا أفهم الأمور. وهذا الجديد انتقل بي إلى عالم الكنوز والسحر وتوظيف طقوس في استخراجها والتعامل مع الجن في العملية...

الآن، جاءت الفرصة الذهبية. فرصة من ذهب لأجل الكتابة ولأجل الاكتشاف الذي يجعل الكتابة من ذهب. لم أستطع قول لا. وكأنني لم أسمع إلا دهشة الطلب التي تجعلك لا ترفض. قلت في

جوابي: إن شاء الله تعالى. سمعتُ عبارة: المخطوط حول كنز دفين. ولم تسمع أذناي إلا كلمة مخطوط. لم تستوعب بعد غاية ومقصود كلمة دفين لحظتها، كلمة مخطوط توحي ككلمة أولى ببحث علمي توثيقي استكشافي مرتبط بعمل العقل والفكر، وبمادة مكتوبة. أما الكلمة الثانية وهي دفين، فقد جاءت في صيغتها الفصيحة في اللغة العربية، بصيغة فعيل، صفة ثابتة للمفعول من دفن... في دلالاتها ما يجعل العقل يؤجل فهم العلاقة مع كلمة كنز التي لم يتصوّرها العقل كمسموع، خصوصا وأنه هُيّء لموضوع مركب ومبني: بحث تاريخي مرتبط بمدينة مولاي إدريس زرهون ومدينة وليلي التاريخية والأثرية، بطالب يُحضّر البحث لأجل هذا الغرض وبأب يريد مساعدة ابنه في تحقيق طموحه الدراسي عموما. كلها عناصر تدل على موقف إنساني، لكن العقل سيراجع ويستحضر في ما بعد: لا يعذر أحد بجهله للقانون. موضوع الكنوز له مرجعياته التي تؤطره قانونيا وعمليا.

الدهشة، المصيدة، الاستغراب في الاختيار. ماذا لو رفضت. كان كل هذا الاشتغال الذهني سينغلق وسيتم منعه من البروز والانكتاب. ولكنني قلت إن شاء الله تعالى، في حدود رغبتي في

المعرفة، في المساعدة، في خوض لذة التجربة. لكنها تجربة تقف عند حدود الاطلاع والاكتشاف دون رغبة في خوضها ميدانيا وواقعيا. وجعل الأمور بمشيئة الله تعالى سيعني ذلك بإرادة الله وما يريده لنا من خير، بسببية سماوية وليست بشرية. سأكون ذلك الذي لم يعبّر عن الموافقة الكلية: إن شاء الله تعالى. هكذا أحاول أن أؤوّل العبارة ثقافيا في مرافعة تبريرية.

كنتُني كالصحافي المتعطش فضوليا للمعرفة والاطلاع وتقصي الحقائق. وفي بعض الأحيان لا يستطيع انتظار رخصة أو إذن، أو ربما هي فرصة للاطلاع خارج المألوف والمأذون به. كالتحري، كرجل الأمن السري والمخبر والجاسوس... كلها وظائف ومهام تتقاطع في هذا الفضول الممنوع. وجدتني أطلع على مقالات وتحقيقات حول حفاري الكنوز وحول ثقافة توظيف الأطفال الزوهريين في ذلك. عوالم جريمة بشعة واستغلال للأطفال. استغراب يصل مع نهاية كل مقال أو تحقيق صحافي مقروء إلى نفس التساؤل المطروح من طرف الجل: هل فعلا حقيقي هذا الذي يظنونه يتحقق؟ لماذا هذه الجرائم؟ لماذا هذه البشاعة والوحشية في استغلال الأطفال؟

وجدتني أقف بين نارين: نار بشر يوثرون المال والكنز المدفون ولو مع ارتكاب جرائم قتل، ونار عالم جن يعرضون الخدمات في مقابل دم معين وبمواصفات معينة، مسكوب لأجل تحقيق لذة وإرواء في مقابل تعيين مكان الكنز الدفين. هذا التعبير الذي يجعله كسِرٍّ غير مادي، قد ينقشع إذا لم يتم اتباع المواصفات والشروط البشعة التي يجعلها. هذا الدم، هذا القربان الذي يقدم من طرف أهل الإنس لأجل أهل الجن. هذا القربان هو مواصفات أطفال معينين، ذكورا كانوا أم إناثا. هذا الذي يقع دون رحمة إنسانية. هذا الشر الذي يجعل أبشع الجرائم تقع لأجل هذه الخدمات. هل ينتمي كل هذا إلى دائرة السحر الأسود؟ وذلك العلم الممنهج الذي لا يراعي المعايير الأخلاقية ولا الإنسانية في تحقيقه لأغراضه وأهدافه؟ لا يميز بين الخير والشر؟ كلٌّ سواسية وسيان.

وأنا أرقن هذه السطور أستحضر ثقافتنا منذ الطفولة والصغر حول الشخص الزوهري. وكلمة الزوهري في استعمالنا اليومي اللغوي المجتمعي تعني كذلك المحظوظ. نقول (عنده الزُّهر)، أي عنده الحظ فهو محظوظ. والزوهري هو الذي تكون فرص إيجاده لأشياء ثمينة بسهولة وبشكل متعدد المرات. تكون

فرصه مواتية في الحصول على ما يريد وبالخصوص ما هو مادي ونقدي. إنه المحظوظ في كل شيء. وكأن القدر جعل فئة من الناس والأفراد ذات امتيازات قدرية دون الآخرين.

كل هذه احتمالات انطلقت كهواجس وكخوف مرافق لها داخل الذهن ومع كل اطلاع ومقروء ومُفَكَّر فيه. وتنطلق الاحتمالات كأبواب عوالم ستكتب أولا هنا مع هذه السطور. لكن، قبل ذلك حضرتني فكرة الحديث عن المسكوت عنه، الذي قد نتواطأ جماعة على تكريسه أو على عدم فضحه ومنعه ومحاربته. وأتكلم هنا عن هذا الاستغلال الجرائمي لبراءة الأطفال من أجل تحقيق المكسب المادي. ويبقى القوس مفتوحا مع التساؤل.

...

في عودة إلى المخطوط، بعد أكثر من يوم ونصف اليوم من تاريخ تسلمه كرسالة وصورة، يلاحظ أنه يتضمن رسما عاما ورسما خاصا. العام طريق مرسوم، معين بمراكز موصلة إلى نقطة معينة. أما الخاص فهو تفصيل لما يمكن أن تكونه هذه النقطة المعينة ⊗ .

وقبل الكتابة والرمز هناك الرسم:

خمسة أوعية أو قدور طينية، وقبر منمق بدوائر صغيرة ومثلثات تحدد جداره الأرضي والمرئي.

احتمال ان تكون القدور الخمسة مدفونة تحته أو بجانبه وحوله.

احتمال أن يكون القبر إسلاميا باعتبار الشاهد الذي جعل له. ما يعني أن اتجاه الشرق مرتبط به.

أكيد أن الأشخاص المعنيين بالمخطوط كما تمت تسميته من طرفهم غرضُهم هو معرفة الموقع أولا. لا أدري إن كانوا محترفين أو مجرد مكتشفين صدفة لهذه الوثيقة. لا أدري إن كان مجرد فرد أو إنهم أفراد متعددون. لكن سؤالي الذي يخوفني قبل القانون الذي قد يسائلني إذا ما تورّطت: كيف سيتم استخراج هذا المدفون أو الدفين؟ وطبعا، هناك فرق في الاستعمال والوظيفة بين كلمة مدفون ودفين. ولعل السياق الثقافي يرافق هذا الفرق. ولعلني أجد في كلمة دفين سرا محمولا كما قلت قبل ذلك وهذا، قوى مرتبطة بالمادة المدفونة، أحداث منتظَرة عند عملية النبش والحفر والاستخراج. طقوس موجودة ومطلوبة لأجل النجاح في العملية، وإلا... إلا ماذا؟ أستحضر مرويات مسموعة منذ الصغر:

هدوء في استخراجه وصمت مطبق وعدم كلام. (قاموا بلمس القطع النقدية فاندهشوا وعبّروا بتعجب واندهاش بحرف الواو ككلمة: واو ! فتحولت القطع النقدية والذهبية إلى قطع من فحم وفخار أو قطع حجرية صماء وملساء).

هكذا فسرنا كذلك ونحن أطفال ما حدث لنا خلال استحمامنا في منبع ماء عين القصر الشهير في سفح جبل محتضن لأكبر

منطقة من بساتين وجنان ضاحية مولاي إدريس زرهون، في الضفة الأخرى للوادي المقابل للجهة الغربية الجنوبية للمدينة. يومها لاحظنا دوائر ملساء صغيرة تلمع مع الماء الصافي. وجدناها قطعا نقدية لعملة يتداولها الناس في زمننا: عشرة سنتيمات، عشرون سنتيما... استخرجنا أربع أو خمس قطع من أرضية المنبع غير العميقة. وبدأ صراخنا وبدأت دهشتنا. تخيّلنا كل حجرة صغيرة قطعة نقدية. لكننا كلما لمسناها كانت ملساء فعلا، ولكنها لم تكن قطعة نقدية.

فرحنا للمغامرة وقُمنا بلوم أنفسنا وتم تبادل ذلك اللوم بيننا: لو لم تصرخ، لو لم تتكلم، لكان كل ما لمسناه نقدا وكنزا. لكُنّا أصبحنا أغنياء، لحملنا هذه الثروة لجداتنا حتى تفرحن بتحقيق محمول المرويات والحكايات التي ملأت عالمنا الطفولي وثقافة أسرنا معه.

عجبا كيف يضغط الخيال والحلم على الواقع ويريدان توجيهه بمقاييسهما !

هل كان للمغامرة أن تنجح في معزل عن عوالم الجن التي في المحكيات؟ إذا روينا ما وقع لجداتنا وأمهاتنا لكانت كل واحدة

ستعوذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم ومن كل جن لئيم. لكانت الجدة ستحمد الله على عودة فلذات أكبادها من مغامرات قد لا تحمد عقباها، بل ستكلف أرواحنا ونفوسنا وعقولنا مثلما ستكلف شقاء وتعاسة أرواح أهلنا. وكأن الأدوار مقسمة بين الأمهات والجدات. عالم الأمهات واقعي مرتبط بالتربية المباشرة واليومية، وعالم الجدات مرتبط بتفسير الظواهر وبناء شخصياتنا العميقة.

وها هو نفس الخوف سيقع لي ومعي. لكنه ليس من عالم الجن، بل من عالم الجريمة والفعل غير الشرعي قانونا، والمرافق لاحتمالات ما يمكن أن يقع، وما سيقع. فما الذي سيقع؟ في بحثي اكتشفت على أن هناك عصابات تحتال على الأفراد فتجعلهم منقادين إلى ساحة استخراج كنز، وتفتعل عمليات شجار وقتل وإزهاق أرواح، وتسجل بكاميرات فيديوهات تستغلها لكي تهدد بها هؤلاء الأفراد المنقادين لساحة هذا الإخراج المشهدي المصطنع. وتبدأ بعد ذلك عمليات الابتزاز. جلهم يخجل من فضح تورطه مع أصحاب الكنوز فتجده يفدي سمعته بما يُطلب منه كقدر من المال... وكم منهم مثُل أمام العدالة والقضاء. وها هو الاستنتاج الأول المرتبط

بتوهمات هؤلاء في وجود كنوز فعلية. ها هم ينتقلون إلى عصابات تكيد وتدبر المقالب من أجل الابتزاز وانتزاع المال من الآخرين.

بالعودة إلى المخطوط، ألاحظ ان هناك كتابة آنية وقعت عليه مخترقة تشكيل الرسم والكتابة القديمة الموجودة فيه. وهي في الرسم الخاص وليس العام. هناك سهم جعل له قياس بكيلومترين (2km)، يوصل إلى مربعين في شكل رسم صندوق ربما . هناك قياس مترين (2m)، ربما هو عمق الحفر أو الحفرة أو الكنز. فهل يكون شكل الصندوق عبارة عن حجرة وضعت فوق حفرة ما؟ طيب، هناك كلمات مفاتيح مجاورة:

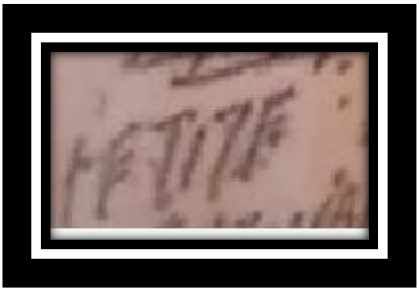

أرى أمامي طِفْلَيّ الإثنين، مثلما أرى كل أطفال العالم. أشعر بالقرب والحب والارتباط مثلما يشعر به كل من له علاقة قرابة وبنوة. أتحسس وضعيتي مثل تحسسي لوضعية الآخرين والأخريات. وبذلك أنا إنسان. وبذلك أزيد من ارتباطي وانتمائي للإنسانية والبشرية، وأقلص من تلك الأنانية الغريبة التي قد لا تبالي والتي أعطتنا وصفة أول جريمة في التاريخ وأول اشتهاء طاغٍ على الذات.

هكذا باختصار أبدأ رحلة الاحتمالات. ازداد خوفي مثلما ازداد حرصي وحذري. وازداد هذا التصور وكأنني في مشاهد النبش أرى اختطاف وتعذيب طفل صغير. أرى براءة في خوف لا تملك معه أمام شياطين الإنس والجن حولا ولا قوة. أجد لعبارة (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) أكبر ملجإ لهذه الروح

الخائفة والمهددة، وكأنها انتُزعت من جنة وتُحضّر لتلقي الجحيم.

قد أُساوَم بالحضور وبحضور الطفل، وأُطَمْأَنُ على المصير. لكنني جلاد وسفاح في كل التصورات. مُدانٌ مثلما يدان كل من يساهم في استغلال الأطفال سواء في كسب المال أو في الحرب أو في الاغتصاب... أرتعش وأتنكر لحواسي في كل لحظة تصور لهذه الاحتمالات. فكيف نحمي أنفسنا من كل هذه الشرور وهذه الويلات؟

...

من أصدقاء السيد حسن بمقهى "زهرة التوليب"، يوجد السيد عزيز الحمدوشي المحامي بمدينة مكناس. يعلم اهتمامه الحقوقي بملف الأطفال "الزوهريين" المستغَلّين في استخراج الكنوز. كم ناقشا الموضوع بحكم تجايلهما وبحكم تقاطع ثقافي كبير بينهما، وبحكم الاشتراك والتشارك في أعمال جمعوية سابقة وآنية، منها فكرة حماية الطفولة وحماية حقوقها وكرامتها من كل استغلال أو انتقاص. الكبار قادرون على التعبير وعلى الدفاع عن أنفسهم، أما الصغار...!

يعلم السيد حسن مشروع صديقه عزيز الحمدوشي الكبير والذي يتجلى في مأسسة دستورية وقضائية وإعلامية وتربوية. مؤسسات تعمل ميدانيا وبشكل نافذ على جميع أصعدة الأهبة والدفاع والمحاربة... كان السيد عزيز في الواجهة الظاهرة والفاعلة، وكان السيد حسن المتضامن بضميره وثقافته ودعمه للمشروع:

- كم منا يؤمن ولا يعمل ولا يلتزم!

هكذا كان تأنيب السيد عزيز في محطات على تراجع حماس محيطه حول المشروع.

هكذا قرر السيد حسن أن يربط الاتصال به ويطلعه على الموضوع. كان قد حسم أمره. خاف من أن تكون عصابة مدربة على القتل والتصفية، فتقرر الانتقام منه إذا ما هو عارضها أو كشفها وفضحها. اختار الطريق الأيسر. بعد مرور أيام، تلقى مكالمة جديدة من السيد حمودة (X)، والذي ما يزال مجهول الهوية عند السيد حسن، أخبره فيها هذا الأخير بأنه لم يستطع فك تلك الرموز لأن تخصصه جغرافيا وليس تاريخ. نصحه بأن يستعين بمتخصص في علم الآثار، واعتذر لكونه لا يعرف أحدا في المجال.

...

ـ أوف !

هل كانت كافية لكي ينفض غبارا ثقيلا عن كتفيه؟ أن يتخلص من شباك كادت أن تلتقطه كصيد ثمين؟ لا يدري حقيقة كل هذا وما يؤول إليه. كم من الأخطار تعبر أمامنا أو تحت خطوِنا ولا نشعر بها. لكن تواصله مع السيد عزيز المحامي جعل تعقيدا جديدا استشعره السيد حسن. رغم كون الطلب كان بسيطا، مجرد معلومة يتتبع خيوطها وأخبارها، إلا أنها قد تقحمه في

تداعيات الأمر. صورة خريطة الكنز الدفين ورقم هاتف المتصل به.

- لا تخف من شيء. أنت بعيد عن كل هذا ولن أجعل بين تواصلهم معك وما أنوي القيام به أي علاقة. كن مطمئنا سيدي حسن. أنت اخترت الكتابة، وأنا اخترت التحقيق والمتابعة. هكذا نحسم معا هذه المعركة.

وأخيرا، أصبح للسيد عزيز الحمدوشي خيط رابط ومعلومة يمكنها أن توصله إلى شخص مادي معني بمواضيع الكنز الدفين. شخص حي ومباشر وقضية قائمة بأحداثها ومجرياتها. فما جمعه من معلومات كانت قصصا وشكايات وأحداث مروية. كانت قصاصات أخبار جرائد وتقارير صحافية. ما هو دعاوى قضائية فقد تم البث فيه. لكن ما هو سارٍ وجارٍ في الواقع: احتمالات دم مهرق جديد، وأرواح مسفوحة، وأطفال أبرياء سيذهبون ضحية نفوس وحشية وهمجية وخرافات جهنمية.

ما تزال تلك الرائحة الغريبة تقتحم خياشيمه وذاكرته وتستفز روحه وضميره. غرابة استغلال طفل وقتله وسحله في جنان بالقرب من قريته.

يعود لملفه الكبير والأصلي المتضمن لجميع المستندات والوثائق كما للقصص المرتبطة بالأطفال ضحايا هذه الثقافة، ويطالع من جديد أول قصة دونها فيه:

" القصة الأولى:

هي لعبة العجلة المسماة بالدور. قد تكون مطاطية أو معدنية ونادرا ما تكون خشبية بحكم أنها تستخلص من بقايا عجلات السيارات أو الدراجات. هو شكل دائري، إطار عجلة حديدي رقيق ومشكل من ثقوب صغيرة تجعله يمتص الهواء حتى يخفف من وقع صلابة الأرضيات والطرقات والتدحرجات اللامتناهية في كل ارتطام.

ها هو ذلك الدور الآن بين يدي طفل صغير. اسمه صالح. سمّته أمه تيمنا بأبيها المتوفى قبل عقود. كبُر الطفل وهو الآن في الخامسة من عمره. تتأمّله الأم وهو يلعب أمامها في باب المنزل كلما خرجت لنفض غبار أغطية أو زربية أو مكنسة. تُوقّع بابتسامتها أو استغرابها كل مرة لما تراه من تشابه قد يكون له مع جده، مرة في رؤية العينين العسليتين اللتين تجعلان النظر إليهما يسافر بالناظر في أعماق غريبة ومبهمة، ومرة في رؤية قفاه التي تعلو بشكل غريب فوق كتفيه. يوقف

اللعب وينظر إليها بإجابات صامتة ومستفهمة بقدر ما هي مبتسمة كذلك. لا كسرة خبز أو حلوى منزلية تمسكها بين يديها كهدية له في هذا الصباح الجديد.

في استراحة محارب يتكئ صالح على جدار المنزل الأبيض. قد يلطخ قميصه المفتوح في فصل الصيف الغامض هذا، بلون الجير وترابه. لا يهمه كل ذلك، فمعركته يتداخل في استعمالها الماء والتراب والحديد، ولِمَ لا الجير كذلك. يكون العرق الناتج عن جهد الحركة واللعب وإفراز المسام هو الموقع على ذروة المنجز في كل يوم.

في جلسة قرفصاء يتأمل طفلين يلعبان بكُرة فقدت ثلثي هوائها المضغوط ولم تحافظ سوى على سمك طبقتها الذي يجعلها بهوية كرة صالحة لكي تتقاذفها الأقدام. له تاريخ قديم قدم طفولته مع هذا الفريق الماثل أمامه. إنما هذا اليوم جعل لعجلته المعدنية الحظوة في الرفقة واللعب بمحيط المنزل وقريته. ربما بقايا فطور مؤجل تنتظره في التناول. استراح لدقائق معدودة. نهض من جلسة القرفصاء وسوّى عجلته لمسار جديد وجعل عصاه الخشبية الرقيقة تقودها. الوجهة الآن مسار معبّد بجانب الطريق المؤدية إلى مدينة الدارالبيضاء. لا البحر عن شماله

أوقف بهديره غناءه (أمي يامّي اعطيني زلافتي د البيصارة)، ولا قريته خلفه نادته في تنبيهها (عُدْ ! إلى أين أنت ذاهب؟)

في مرات عديدة سأل عن أبيه فأجابته الأم بأنه ذهب إلى الدار البيضاء التي ابتلعته ولن يعود. كانت الأم تخفي عليه واقع طلاقها الذي ألحت في طلبه بمرارة باعتبار الغياب الطويل والإهمال الكبير، وباعتبار إدمان الزوج وإفلاسه في لعب القمار. قصة طويلة سحقت فؤادها وتركت بقايا بركان ميت في جوفها. خوّفتْه من مدينة الدار البيضاء، وفي كل مرة سُمع له زفير بحجم الجبال السامقة التي رآها مرة في سفره إلى مدينة بني ملال، بين الرغبة في التحدي والخوف من الفقد والفقدان.

تباطأت حركة عجلات سيارة. كانت بيضاء من نوع رونو 12. قديمة الطراز لكنها محافظة على صلاحية استعمالها. أدرك صالح أن عجلته أسرع من عجلات السيارة. فرح وضحك وهو في جريه الطفولي، وكأنه حقق المعجزات. سارع السائق للتوقف بأمتار أمام دور صالح. نزل رجل من الخلف في حذاء أسود وبدلة رمادية ونظارتين سوداوين. كل ما استطاع صالح ملاحظته في اندهاش. أشار الرجل الطويل بابتسامة وتلويح بيده اليمنى. توقف صالح مبديا ثناياه في قسمات فرح بطولي

انتبه له كبار الناس في الأعمار كما هذه السيارة التي استطاع مسابقتها في السرعة:

ـ هل تعرف منزل أولاد صالح بلمعطي؟

ـ هي بلاد أخوالي وأمي، توجد هناك أمامكم على اليمين وراء تلك العلامة الطرقية.

ـ يمكنك أن تدلنا عليها. نريد شراء قمح ورزمات تبن من هناك. اركبْ معنا، سنوصلك أنت وعجلتك إليهم.

بقطعة ثوب ملفوفة ومربعة صغيرة زُمَّ فمُه وجُعل شريط على مدار وجهه حبسَ كل صوت وشل كل محاولة صراخ. كانت أطرافه محكمة المَسك. جُعِل في كيس خيش ورُمي خلف السيارة مع حقيبة وبقايا خضر وبطيخ أحمر، ومع دوره وعصاه. استراح الثلاثة تحت ظل شجرة كليبتوس، غير بعيد عن مدينة الدار البيضاء، بعد أن تجاوزوا بحوالي خمسة وثلاثين كيلومترا قرية أولاد صالح بلمعطي، وبعد أن تأكدوا من العلامات في جسده. والتي تدل كلها على أن الطفل صالح (زوهري) وصالح للمهمة المنتظرة. اسم على مسمى. كانت المواصفات التي أخبرهم بها فقيه الدوار ومغسِّل الموتى

مطابقة لما لاحظوه وما يريدونه. ها هم الآن يمتلكون الخريطة كما يمتلكون الطفل. ماذا تبقى من أجل إنجاز المهمة؟ بقي السؤال معلقا ومنتظرا فكّ الرموز في المخطوط الموجود عندهم. خمسمائة درهم كانت كافية لكي يرشدهم الفقيه لصيدهم الثمين. برروا اختيارهم وطلبهم بقولهم: نتبرك به ونعيده لأهله سالما.

كيس خيش وظلمة واضطراب كبير. لم يشعر مع كل هذا سوى بدفء ساقيه بعد أن تبوّل في سرواله مخالفا ما علّمته أمه طول السنين الماضية: الرجال لا يتبولون في ملابسهم. لا شجرة قريبة ولا سدرة وجدها لكي يقضي حاجته. كان الصندوق الخلفي للسيارة هو الفضاء المعتم لكل هذا الذي يقع. لم يفهم صالح بعد ما يقع. دموع انهمرت وتكلست فوق خديه. لم يستطع حتى الصراخ. فكّر لحظة في عجلته المعدنية وماذا حلّ بها. تحسس برجليه من داخل الكيس الكبير فلمس شيئا باردا يشبهها.

توقفت السيارة إذا. يسمع الأصوات، ربما هي ثلاثة. لاحظوا البلل الذي تسرب من الكيس وداخل الصندوق. نطق أحدهم:

ـ الحمد لله، لم تلطخ الخضر ببوله.

ـ لابد من تبديل ثيابه قبل الذهاب إلى وجهتنا المقصودة.

كان اتفاقهم على عدم ذكر الأسماء ولا الأماكن التي يقصدونها. الآذان تلتقط، والطفل الضحية أولها. ماذا عن والدته؟ كان ذلك السؤال هو ما وتّر الطفل وحاول معه العودة للفركلة والصراخ والبكاء. لكن، دون جدوى. ستقيم أمه القيامة وتقعدها بحثا عنه. ستلومه وتكويه بقضيب حديدي لأنه فكّر أن يلعب بالدور بجانب الطريق الكبير. كم من مرة كان عليها أن تنبهه، لكن فات الأوان الآن..."

...

وكأنها جرعته الجهادية التي تعطيه الشرعية والقوة والسند لكي يمضي قدما في رسالتها. وكأنه أحد الأنبياء الصالحين الذي كلما أسقطه قومه بنار أو حجر أو ما شابه تعذيبا، قام كطائر فينيق لكي يستمر في مهمته. هُدّ الجلاد وما انهدّ المجلود. هكذا سيتغلب السيد عزيز على تعبه الذي قد يشعر به وهو يتّبع خيوطا كأنها خيوط رمادية لسراب منفلت من قبضته. قرر ركوب المستحيل واستقل سيارة أجرة صغيرة بدل سيارته،

حيث أراد أن يستريح من قيادة مسار وترك المحيط يشارك فيه. هو شأن مجتمعي، لابد لي أن أجعل الجميع شاهدا على ما أقوم به. هكذا همس في دواخله. هكذا تأمل مسار رحلته ومعالم عمرانها وحركية بشرها وكأنه يرى كل هذا لأول مرة. قادته سيارة الأجرة الصغيرة إلى ولاية الأمن الكبرى بشارع محمد السادس بمدينة مكناس بعد أن عبرت ساحة باب بوعمايرر، ثم جانب حديقة الحبول فطلعة باب كناوة وروامزين والهديم ومسجد مولاي مليانة... تراءت له المدينة القديمة بأسوارها الحمراء المتربة مثل قضيته التي تحتاج إلى ترميم وإصلاح، وربما هدم وإعادة بناء. هناك في الطابق الثاني من ولاية الأمن سيضع طلبه المتعلق بمعرفة هوية صاحب الرقم الهاتفي ومبرر البحث عنه: قسم الأمن الرقمي ومتابعة الجرائم الإلكترونية.

في لحظات شعر بضعف داخلي يعرقل خطواته وتفكيره وعزمه. استشعر بلادة وغباوة حكم بها على نفسه، ولم يكن الساخر أو الحاكم سوى محيط ثقافة مهنته وحرفته: الناس تلتقط القضايا التي تذر الأموال والأرباح، وأنت تتبع السراب الذي تهدر معه الجهد والمصروف.

احمرت وجنتاه وهو متعرق ومختنق بما راوده. تغلّب على كل ذلك ومضى في خطته ومبدئية مشروعه.

استحضر خلال رحلته داخل سيارة الأجرة ـ ولا يدري إن رافق الاستحضار لحظة شعوره بذلك الخوف الغريب من كل ما يقوم به ـ ذلك الشق القانوني الذي يشرعن اهتمامه ويشرعن موضوع الكنز والتنقيب عنه قانونيا. قانون 22.80 المتعلق بالمحافظة على المباني التاريخية والمناظر والكتابات المنقوشة والتحف الفنية والعاديات. ميز بين الجانب التراثي والأثري في ذهنه عن الآخر، المتعلق بالمدفونات عبر عقود وقرون. لاحظ أن المجتمع لم يقم بعد بإعطاء القيمة لكل ما هو تراث حامل لهوية وذاكرة وتاريخ أمة.

فعلا قد لا يجد البعض أو يجهل هذا البعض سبل الاغتناء بالآني من عمل أو استثمار أو إنتاج، فيلجأ إلى النبش في السابق ليغتني به، إلى ما هو ذي قيمة مادية ونقدية في حاضره مما تركه السابقون. استحضر لفظ النباش، نباش القبور الذي يطمع في المدفون مع الموتى، ولو كان كفنا ! يندهش فيصدر تنفسا يصاعد شهيقا. يرمقه سائق الطاكسي في المرآة بشكل خاطف وفي صمت. يحدس لفطنة الآخر فيحول بصره للنافذة متابعا تسارع المشاهد الذي قد يجعله يلخص مسار اهتمامه بالموضوع وخيوطه المتشابكة، تسارع الزمن الذي يجعل الجهاز العصبي يستحضر كمًّا كبيرا من الأفكار ومن التحاليل، ومن تداخل كل هذا ذهنيا لدرجة أنه يمكنه أن يفجر دماغ صاحبه.

يتحول السيد عزيز الحمدوشي للانشغال بصفحات هاتفه المحمول. يكتب في محرك البحث غوغل عبارة الكنز الدفين، فيجد نفسه قد بحث عنها لمئات المرات، بعدد لا يحصى فعلا،

بدليل أنها تترأس قائمة عناصر البحث المسجلة في ذاكرة صفحته الرقمية و الإلكترونية. يثيره عنوان جديد عليه، كما أنه يستغرب من انفلاته، نظرا لأقدمية تاريخ نشر مقال هذا العنوان الموجود. يتصفحه قراءة، فيأخذه اهتماما في التتبع. ما يزال صوت نبوية، مثل صوت صالح وغيرهما، يوقظانه مفزوعا في عز الليل من النوم العميق. ولما قرأ الخبر والمقال بصيغته الدارجة في هذا الموقع الإلكتروني المألوف عند الجميع: (نْهارْ السبت فْالصباحْ، لقاوْ ضريح سيدي خليفة بدوار لفقيه، فْقلعة السراغنة محفور. اعتقلوا فقيها بالجنوب ذبح صبية قيل أنها "زوهرية")، انفلتت ضربة من كف يده فوق خلفية المقعد الأمامي لسيارة الأجرة بجانب السائق. بادر هذا الأخير مستدركا بسؤال أو تعليق هو أكثر من سؤال بقوله:

ـ هذه الحرارة، وزدْ عليها هذا الازدحام، مصدر قلق وتوتر للجميع !

أجابه السيد عزيز شاردا مع موضوعه ومقروئه:

ـ فعلا.

كان شروده مسكونا بشبح الصورة التي تخيلها للطفلة نبوية. نبوية التي تبناها في قضيته وبحثه. تعرق وتنملت مسامه بسرعة بعدها. استشعر خطرا. ربط بين الخبر المقروء وبين قصة نبوية التي جمعها قصة محكية في ملفه. اعتبر أن الصبية الزوهرية، رغم عدم وجود رابط ربما، هي الطفلة نبوية. وكأنه فاتته فرصة كان من الممكن له معها أن ينقذ الصبية نبوية من جريمة القتل

هذه. عاد للوم نفسه وتأنيب ضميره، عاتب فشله في السباق مع الزمن، وكأن وتيرة هذه الجرائم المتسلسلة لا يواكبها مجهوده الذي أ صبح من واجباته في ضرورة إيقافها كفظائع واستئصالها من الثقافة والسلوك.

قرّب وجهه أكثر من زجاج النافذة، من جهة اليمين متأملا الناس باختلاف أعمارهم وأجناسهم في ساحة الهديم. تواصلات وحلقيات في الفرجة أو في التجارة أو في أشكال تواصل متنوعة. بحث عن وجوه ربما يربطها بقصصه وقضاياه التي سيبدأ في متابعاتها القضائية والقانونية، وفي بحثها الجنائي والمحاكماتي. تاه وضل تفكيره. كاد يصدق ما نعته به محيطه من كونه قد يكون ممسوسا بالجن ومسكونا بالأرواح. فعلا يشعر بأن أرواح وأصوات هؤلاء الأطفال تناديه وتحاوره في المنام واليقظة. تتلبس بتنفسه وشعوره، وقد تستعير صوته لتسمع صوتها، فيكون كل نداء من أعماقه صاعدا يريد أن يخرج للعالم ويصرخ بحقيقته وقضيته ومحنته التي نقلته إلى عالم الأموات. لكنه سرعان ما أخرجه منحدر الطريق المبتعِد عن ساحة الهديم من حالة شروده هذه، وربما هذيانه إذا ما اعتبر في لحظة ما أن ما يقوم به عبث، وأن ما يقوم بالبحث عنه للقبض عليه سراب، مجرد سراب.

يحضره صوت صديقه حسن، هذا الذي ورّطه في دليل الموضوع الجديد. لمح لوحة مؤسسة الأعمال الاجتماعية لأسرة التربية والتعليم بحي الرياض ـ الملاح الجديد، وحسن أستاذ من أسرة التربية والتعليم. وكأنه بطاقة تعريف تذكرية للمنتمين لها.

تذكّر آخر مناقشاته معه. ما تراكم بينهما من وعي، ما انتقداه من تخلف في التفكير داخل الأوساط الاجتماعية والأسرية، ومنها أسرتيهما طبعا. كيف نلجأ إلى حلول الفقيه وطلاسمه وطقوسه، وكيف ننفق الأموال الطائلة في معالجة غامضة ومتخلفة لمشاكل نفسية واجتماعية ومالية وصحية وغيرها.

ـ بالطبع ستكون ثقافة البحث عن الكنوز ولبوسها الثقافي والأنثروبولوجي والخرافي والسحري حاضرة ومكرسة.

يعلق السيد حسن حول استفحال الظاهرة وهو الذي قام ببحث مقالي حولها، واستجمع الثقافة والطقوس والممارسة داخل بحثه هذا:

ـ هناك مفاتيح أساسية للبحث عن الكنوز أو النفائس الثمينة المدفونة في باطن الأرض: تثبيت المكان ـ خلوه من "العْمار" (الإنس) ـ ترحيل الجن من هذا المكان ـ النية والثقة بين أفراد المجموعة التي تعمل على التنقيب ـ السر والمحافظة عليه، وهو من أسباب قضاء الحاجات وتحقيقها ـ التوكل على الله والرضا بقضائه.

هي نفائس يحرسها عدد كبير من الجن الأشداء بعد مرور أربعين سنة على الدفينة، ولا بد من "التقييدة" أي الخريطة أو خارطة الكنز التي تحمل مواصفاته وعلامات المكان الذي يوجد فيه. وقد تكون الرؤيا في الحلم ضرورية في حالة تضارب المصالح بين مجموعة الجن الحارسة للكنز.

لاحِظْ معي سي عزيز: الخريطة التي بعثتها لك تتضمن العناصر الضرورية المعتمدة في التنقيب. هي تقييدة وبها مواصفات وعلامات. لا أعلم كيف حصل على مثلها صاحبنا الذي أرسلها. تبدو قيّمة ومثيرة بحروفها ورسومها !

ـ أراك متخصصا في الموضوع ومن أصحاب الكنوز آ سي حسن. لماذا لم تجتهد مع الخريطة التي توصلت بها من طرف باعثها ومصدرها؟ كنت لتغنتني فعلا بقيمتها ونتيجتها.

ـ سي عزيز، تعلم القناعات المشتركة والمبادئ التي نحملها كمتعلمين. اللهم إذا أردت أن تتفرج علي وأنا في زوبعة الجن ورقصة العفاريت.

ـ سنغني حينها "حسن والعفريت" بدل "أحمد والعفريت".

ضحك السيد عزيز وهو في مقعده الخلفي لسيارة الأجرة. تنفس السائق الصعداء لما وجد نقطة الوصول وقد رست سيارته بها. ربما يكون هذا الزبون مهبولا أو مخبولا. رغم لباسه العصري فإن هذا لا يعفيه مما يراه من أمراض عقلية ونفسية يصاب بها الصغار والكبار، الرجال والنساء، الأغنياء والفقراء، الجاهلون والمتعلمون. مهنة سياقة الطاكسي مختبر ميداني لشتى ظواهر غريبة وعديدة !

حمِد الله على انتهاء رحلة هذا الزبون أمام بوابة ولاية الأمن. له أن يدخل مقرها بعقله أو جنونه. فكّر قبل أن يسلّمه السيد عزيز ثمن الأجرة أن يعتبر نقله في سبيل الله مجانا إذا ما فكّر وطلب

منه الاستمرار في السياقة. لا حاجة له بمثل هؤلاء الزبناء. ردّ على السيد عزيز الدريهمات المتبقية من الورقة النقدية. شكره هذا الأخير وخرج من سيارة الأجرة. كلاهما تنفس تنفسا جديدا.

...

كانت الرحلة فاصلة بين مرحلتين. وكأن عبئا ثقيلا سيتحلص منه بمجرد دخول بهو بناية ولاية الأمن. تذكر أنه محامي، والمحامي مثل الطبيب لا يضعف نفسياخلال تناوله لقضاياه. لقد تغيرت نظرته وطريقته فعلا. فبمجرد ما دخل مكتب العميد تفاجأ بكونها امرأة مسؤولة على القسم وقد أسندت لها المهام الجديدة. تساءل مع لمح بصره وبرق تفكيره إن كانت سيدة أو آنسة. لم يستنتج بعد. حدس الاكتفاء بتعبير السيدة عميدة الشرطة في انتظار ما سيكتشفه.

شعر بكيانه يتغير وبأن كل الحذلقات التي تعلمها في العمل، وفي المقهى والحياة العامة، كانت مجرد لعب ومراوغة. لقد كان هامش البسط والمزاح سلاحه في التغلب على تعب ومشاكل وعراقيل المهنة وملفاتها. كان أسلوبه في الكلام والتحاور هو المساعد له في التخفيف عن نفسيته أثرَ وحرقةَ الملف الذي تبنّاه مشروعا إنسانيا داخل وطنه، ربما داخل

مهنته التي لم يخترها طواعية، مشروعَ حماية الطفولة من ثقافة متخلفة.

كلمة "متخلفة" كانت مفتاح كلام الآنسة رشيدة الوانزي وهي تحاوره حول الموضوع. كانت قاعة المكتب أنيقة ومرتبة. لمسة أنثوية حاضرة في الفضاء. كل ما فوق المكتب العريض موضوع لوظيفة وبشكل أبهر السيد عزيز الحمدوشي، أمير الفوضى في كل شيء، إلا ما كان من ملفات قضاياه، فقد كانت تسْلَم في الأخير من كل ما يعلق بها من شوائب ومن ما هو ثانوي أو متناقض كعناصر، سواء في الصيغة أو في ما استندت عليه من فصول وقوانين أو قضايا مشابهة مستحضرة في المقارنة وإلا كانت الهيئة القضائية لتؤنبه على فوضاه وتعيد له طلبات ملفاته ودعاويه.

استغربت لابتسامته في حضرة جديتها وجدية الموضوع، لكنها أجّلت السؤال عن المفارقة، فوظيفتها موضوعيةُ تناولٍ واستقامةُ تعامل، هكذا شعارها الذي جعلها تترقى في مدارج العمل والبحث والدراسة معهما. هي الآن مسؤولة عن الأمن الرقمي والجرائم الرقمية. منسقة مع السلطة القضائية وخلية التوعية المجتمعية بأخطار الجرائم الرقمية. برنامجها الأسبوعي يتضمن زيارة لمؤسسات تعليمية وجامعية ومهنية يختارها وينسق في إنجازها فريق العمل الموجود معها. لكن المحامي اليقظ والفطن، يستدرك بحدسه ولو آخر لحظة ما يمكنه أن ينقذه من سوء الفهم أو التأويل أو الحكم. التمس

عذرا وطلب كلمة مقتضبة قبل أن تشرع السيدة العميدة في كلامها:

ـ أستسمح سيدة رشيدة.

ـ آنسة رشيدة.

ـ آنسة رشيدة. اعذريني، هناك ضغط أعيشه مع الموضوع ومع هذا الملف. مرت سنوات قبل أن أجعل شخصيا خيطا رابطا لخطوات تعالجه. أتمنى أن تتفهمي توتري الذي قد يبدو ابتسامة، وقد يبدو توترا في آنٍ. أعلم أن قضايا مشابهة قد تم تداولها وتم الحكم على أصحابها. لكن الملف أصبح متقدا بين يدي وأردت أن ألقي به وأتخلص من حممه.

تبتسم الآنسة رشيدة وتعلق:

ـ وهل تريد أن تلقيه محموما بين أيدينا فنحترق به نحن كذلك؟

لم تنتظر جوابه حتى استرسلت قائلة:

ـ فعلا سيدي. هذا الموضوع أكثر من موتّر وخطير.

قطّب حاجبيه، فلم تدر هي سبب ذلك ولا مناسبته. كان ذهنه قد شرد مع متاهات حمقه الخاص ـ تناديني بالسيد، فكيف أتميَّز عن المتزوج؟ هي آنسة وليست سيدة، وأنا؟ !

ـ إنها ثقافة التخلف التي ما تزال تعشش داخل مجتمعنا. مهمتنا صعبة في استنصالها ومسؤوليتنا كبيرة جدا. سأطلع على

الملف وأصوغ المسطرة الخاصة بالبحث والتقصي والتتبع لخيوط هذه المكالمات وأرقام الهواتف المتعلقة بالقضية. يبدو أنك لم تسجلها بعد دعوى قضائية ضد أحد ما؟

ـ ربما سأجعلها دعوى ضد مجهول الآن. مجهول معنوي ! ما رأيك أستاذة؟ رقم الهاتف قد يقودنا إلى أسرار مرتبطة ومتداخلة.

تبتسم لطريقة كلامه وطابع شخصيته معها وتعلق:

ـ تتبع رقم الهاتف ممكن الآن، لكن دعوى قضائية ضد شخص معنوي مجهول تبدو غريبة على الملفات القضائية سيد عزيز.

ـ أكيد أستاذتي.

...

يضحك ويقهقه بشكل غريب. يحسب نفسه مجنونا قبل أن يبادر الآخرون لاستحضار هذا الاحتمال. يلتفت يمنة وشمالا فلا يجد إلا ظله الذي يهتز مع دغدغات بدنه. هكذا إذن، سأنفلت بغرابة وعيي وإصراري لكي أصبح غريبا ومجنونا. لكنني لن أستسلم. أعلم أن القضايا الكبرى في ردهات المحاكم لا تربح إلا مع الإصرار والمتابعة. أعي سبب جنوني. كم استعملت العبارة الغريبة المعبرة عنه: يحتاج الناس إلى مد يد المساعدة، وهذه

الملفات وأخرى تحتاج إلى ركلة مساعدة. نعم الضغط والدفع بقوة. يتذكر إلحاح والدته عليه لكي يتوكل على الله ويبحث عن بنت الناس ويكمل دينه. كان هذا تعبيرها الذي يشكل شعار روحها المرافقة له في فؤاده. كل مرة يهمس له وعلى ضميره لكي ينهض ويعزم ويتوكل على الله. فكّر ثم فكر وحاور ذهنه:

أوكي؟!

Coup de pied au lieu d'un coup de main ! Ça ne suffit pas un coup de main monsieur !

(فعلا. كما هذا الملف، وهذه الإدارات وإجراءات التنفيذ والإنجاز، لا تكفي يد المساعدة. لابد من الدفع بقوة. هه.. أنا كذلك أحتاج إلى هذا الضغط بقوة لكي أعزم على موضوع إكمال الدين وإرضاء الوالدين !).

...

100/100 مائة في المائة صفاء آيت البهي !

تقارن السيد صفاء بين معطيات بياناتها الجينية ونظيرتها عند سعاد المغراوي، كذا ابن عمها السيد الحسين آيت البهي. متطابقة كما هذه الدوائر المنتشرة والمتقاطعة التي تجعل الامتداد على طول الشمال الإفريقي وداخل العمق الإفريقي إلى شمال موريتانيا ومالي ونيجيريا والسودان، كما إلى مدار الجنوب الأوروبي حيث فرنسا وإسبانيا والبرتغال وإيطاليا. سخرت من الدوائر المتموجة بين الهنا والهناك: "أصبحنا أمميين الآن". لكنها سخرية حاولت أن تفر من استنتاج باقي المعطيات. بعض الأحيان يكون الاطلاع على الحقيقة صادما ويكون العيش داخل مجهولها آمنا للنفس وتوازنات الشخصية. أخذت نفَسا عميقا استعدادا لهذا الاستنتاج. لم يشأ ابن عمها ببلجيكا أن يعطيها تفاصيل ما استنتج. ترك لها فرصة ذلك وحرية اختيار ما تنوي توظيفه فيه. كانت الصفحة الرقمية الأولى داخل البيان مبينة للامتداد الإثني والذي يمكن أن

يشاركها فيه ملايين الناس من دول متعددة، لكن انتقالها لصفحة البيانات الجينية أدهشها مقارنة مع نظيراتها عند الأربعة: الحسين آيت البهي ـ صفاء آيت البهي ـ سعاد المغراوي ـ لالة عائشة لبريكي أم سعاد.
ـ بين الحسين وصفاء وسعاد توجد علاقة قرابة قوية. والتطابق واضح في وجود أخوة بين صفاء وسعاد.
ـ بيانات السيدة عائشة تبين أنها ليست الأم الطبيعية للأختيين.
أدركت لتوها أنها غفلت أو نسيت جعل دليل من شعر أو دم أمها لالة رابحة من بين العناصر التي حملتها للتحليل ببروكسيل. تساءلت إن كان الأمر رفضا باطنيا لكل احتمال عدم أمومة طبيعية وجينية بينهما. وتساءلت في إمكانية إرسال زغيبات وبعض قطرات دم للمختبر هناك كي يقوم بتحليلها.
!
!
!

كانت علامات التعجب مرافقة لدقات قلبها التي بدأت ترتج معها دواخلها. وبدأت رحلة التساؤلات الجديدة حول علاقة لالة رابحة بسعاد. هل تكون أمنا معا؟ وكيف تكون سعاد بنت والدي سي حمودة؟...
صفحة البيانات الجينية تدعو لتحليل الخصائص الوراثية والجينية لباقي أفراد الأسرة لتفصيل وتحديد أكبر. لن تحتاج السيدة صفاء لكل هذا. هاتفت أختها الجديدة:
ـ سعاد، أينك الآن؟
ـ في الحقيقة تغيّر برنامج رحلتي. آخر لحظة قرر فيها عباس جعلها رحلة سياحية بدل ما كان ينوي الخوض فيه. ربما لم يتصالح مع ماضيه لكي يصلح حاضره. هذا ما شعر به وعبّر عنه.

ـ طيب، أريدك أن تلتحقي بي بمدينة الرباط وبعدها نسافر معا إلى مدينة الصويرة. الأمر مهم للغاية.
ـ أخبريني ما الجديد؟ !
ـ إذا سمحت سنجعل تتمة كلامنا حينما نلتقي معا. ربما لا ينفع الهاتف في شرح شيء. أنا كذلك لم أفهم مجموعة من الأمور في كل هذا. ممكن أن تلتحقي بي يوم الجمعة المقبل حتى نرتب الذهاب إلى مدينة الصويرة؟
ـ ممكن. فقط سأحتاج إلى تغيير البرنامج بأكمله.
ـ طيب سأنتظرك. إلى اللقاء.
كاد الهاتف أن يجعل ضربته فوق الطاولة أمامها فيكون مصيره تلف جديد. وكم أتلف صلاحيته ابنها أنس منذ صغره. لكنها أصبحت بحدسها تنجو من كل ذلك. ناب جانب كف يدها اليمنى في وقع الضرب على الطاولة وهي تحاول الاستراحة والتخلص من وظيفته التي تحمل المفاجآت المدهشة والصادمة كما هذه البيانات التي توصلت بها.
لم تشأ أن تهاتف ابن عمها: (سأكون مشغولا هذه الأيام، لهذا لن أستطيع مكالمتك خلالها. سأتصل بك لاحقا قدر ما أستطيع. إلى اللقاء). متن الرسالة المكتوبة التي رافقت البيانات التي أرسلها لها. لاح جمرا بين كفيها فأحرق تخوفاتها بها وانسحب. ما هذا؟ هكذا اشتعلت بنار أسئلتها. لكنها تمسكت بالنظر لصورة ابنها أنس الذي اقتربت عودته من مؤسسة تعلمه. خيط نجاة روحي رافق نظرها إلى السماء ورافق المناجاة: يارب !

...

" كان حدثا عظيما عند ساكنة سيدي رحال. يومها حطت مروحية تابعة للدرك الملكي، وعليها علم وطني يرفرف زيادة، وحول مدار محطة النزول تجمهر عدد غفير من الناس. لقد أخليت الساحة المبلطة من السيارات والشاحنات. رسمت دائرة بيضاء وسطها، ووقفت طائرة الهليكوبتر على مزلاجي رسوها الثابتين أسفلها".
"كانت المسافة الفاصلة بين المشاهدين وبين الوفد الذي زار المنطقة هذا اليوم ضامنة الأمان، ما دام قد أتى بحقيبة هبة ومنحة ملكية. تحول الموسم من قِبلة الضريح إلى قِبلة المروحية في تلك اللحظات. نظرات الأطفال مزجت بين الجلابيب البيضاء، وبين صورة الملائكة في السماء. من بعيد بدا لها الوفد المستقبل والوفد النازل من الفضاء السماوي داخل مروحية في لباس أبيض ناصع وعُرف أحمر قان ما دامت الطرابيش منسجمة مع هذا اللباس التقليدي الوطني الرسمي".

كانت لالة رابحة كل مرة تركز بصرها على ذلك اللون الأصفر الفاقع والذي كان من المستقبلين، لكي تميزه عن الآخرين. اجتهد الكبار في تعريف كل شخص، واسترق الصغار كما النساء الكلام. وهناك من جعل زيارة السلطان قد تمت اليوم في هذا المشهد. ومع تضارب الآراء والكلام، اختار كل منهم أن يشكل فريقه بالتسميات التي يراها مناسبة في نظره.

"- نعم، لقد كانت هناك بدلات رمادية وأخرى زرقاء داكنة. أتذكر هذا. كان هناك شخص آخر طويل القامة وبجلباب أزرق. ميّزتُه كذلك في رؤيتي. كنا جالسين أنا وأبوك داخل السيارة. من بعيد رأيت كل شيء. كان موسم الولي الصالح سيدي رحال البودالي. كم من مرة ترجيت أباك في زيارة قبر جدي رحمه الله. وقد تحقق لي ذلك في ذلك اليوم المبارك. سُمِح لنا بدخول ساحة الضريح الأمامية بعد أن غادر الوفد الملكي عائدا إلى طائرة تحليقه. تساءلت: لماذا لم يجلسوا حتى يتناولوا وجبة أكل وكرم ضيافة؟ كان شرفاء الزاوية في لباسهم الرسمي. جلابيب مخطوطة بالأبيض والأصفر أو الأبيض والرمادي، أو الأبيض والأسود وغيرها. جلها من نوع "البزيوي" الرفيع. وكانت عمائمهم الصفراء مميزة لهم ومعرّفة أولاد سيدي رحال البودالي.

تجرأت امرأة كأنها مجذوبة واقفة بالباب الكبير فقالت بأعلى صوتها: على ربي، يكونوا قد تفكروا فقراء البلدة بصدقة ما".

كم شعرت لالة رابحة بالفخر حينما بدأ أحد شيوخهم العلماء يتحدث بعد انتهاء الجماعة من الدعاء الشريفي والمولوي ومن ورد حزب الشيخ الولي، عن كرامات ومكانة سيدي رحال البودالي: يكفيه شرفا أنه من سلالة العلماء الصالحين وشجرة النسب النبوية. يكفيه فخرا أن من أولاده المباركين الشيخ بويا عمر والشيخ سيدي أحمد".

كانت السيدة صفاء جالسة في هدوئها المعتاد، ماسكة بيديها الناعمتين حبا، يد والدتها لالة رابحة بنت سيد الرحالي. هكذا

تسميتها. وكم استغربت إلى تلك الإضافة في التسمية بكلمة (بنت)! ألا يكفي القول: لالة رابحة الرحالي؟

كان تأكيد الأم كل مرة دليلا على أن الإضافة تأكيد وتمييز، حتى تبقى الإشارة نقشا على حجر بفخر انتمائها وشخصيتها وأسرتها وأمومتها. وها هي اليوم على فراش المرض، لا تدري إن كانت ستقوم معافاة. الإصابة كانت قوية في الرأس، وفي النفس أكثر، ما دامت قداسة حبها لصفاء لا تريد لها خدشا ولا تنقيصا. فهي هبة الولي الصالح، جدها سيدي رحال البودالي.

هكذا كانت علاقة الأم ببنتها تقديرا واعتزازا. لكن هذا البوح الجديد جاء مغايرا لمسار الحياة والتنشئة والتربية والهوية التي امتلكتها صفاء خلال كل ذلك. وصلت مع أختها سعاد إلى مدينة الصويرة. اقترحت صفاء على سعاد الذهاب معها إلى بيت الأسرة، لكن سعاد فضلت النزول بفندق مناسب. حينما دخلت صفاء على أمها لالة رابحة، كانت هذه الأخيرة بالكاد تتكلم وتجلس وتتبادل كلمات حوارية أو طلبات أو تكتفي بالسماع. لكنها كانت ريحا جديدة، ليست ما ألفته من أمان معها. استشعرت بأن طلعة صفاء كانت ثورة على صمت طويل ساد المغيب من حقائق بعيدة. لمست ذلك في نظرة عينيها الغارقتين في حيرة وحزن غير معهودين. همّت للجلوس مرحّبة ببنتها التي جاءت بغتة. ساعدتها صفاء على ذلك وهي تدعو لها بالشفاء والسلامة وتعبر عن شوقها لمشاركتها الجولات المعتادة بالمدينة العتيقة وقيساريات الذهب والأثواب. كل هذا لم

يجعل لمحات بصر لالة رابحة مرتاحة. تنظر في وجه ابنتها وتبحث عن أي قسمات تترجمها هذه الزيارة وهذا الكلام الجميل المخالف لما فضحته عيناها !

ـ أعلم يا أمي بأنني عزيزة عليك. وليس عندي في الدنيا أعز منك. ولكن، هناك سيدة التقيتها شبيهة لي وتبين بأنها أختي. هل هناك أمر لا أعرفه؟

خافت على أمها من صدمة جديدة ومن انهيار مصاحب قد يؤثر على سلامتها. احتضنتها مقبّلة لرأسها وجبهتها ومعانقة وضامة لها بين ذراعيها في حنان ودفء كبيرين.

...

استجمعت لالة رابحة كل قواها. لم يبد عليها بأنها تحتاج لمساعدة جديدة لكي تسوي جلستها وبداية كلامها الجديد:

بوح لالة رابحة:

(...).

بعد أن تكلمت عن زياراتها لضريح سيدي رحال ومناخ موسمه، انتقلت لبوح آخر مكمل:

(أحمد الله أنني ما زلت قادرة على الكلام. لا يمكنني أن أتصور لقاء ربي يوم الحساب قبل أن أكون قد صفّيت سريرتي وصارحتك يا بنيتي. ولكنني لم أستطع الجهر بشيء. كلما كبر حبك صغر حجم الواقع والماضي. تعرفنا على أحد أولاد السيد

الذي ذكرني بأسرتي الكبيرة وتاريخها بالزاوية. كان من معارف أبيك في مجال القنص في الجبال هناك. طال الكلام عن مكانة والدك وكرمه عليه وعلى الزاوية. اغتبط الشريف ودمعت عيناه وعانق سيدي حمودة آيت البهي وفاجأه كذلك:

ـ سيدي حمودة! الله يقوي خيرك، ويكثّر من الكرام أمثالك. أتعلم؟ هناك قدر رباني قادك له سيدي رحال في زيارتك أنت والشريفة لالة رابحة.

وبدأ يقص الحكاية. كان كلما ازداد نسجها ازداد دمعي وتأثري:

ـ كان صاحب بركة وكرامة. من أولاد سيدي رحال المجذوبين. مات بلسعة أفعى سامة لم تمهله في الالتفات. ترك زوجة حامل لا نعرف لها أقارب هنا. ماتت يوم إنجابها لبنتين ملاكين. إننا نتغلب على شر القدر بخيره. جلنا كان في ضائقة جراء الجفاف. لم نستطع تبنيهما. صادف أن جاءت سيدة من قبيلة كروان تطلب بركة الولي الصالح في الإنجاب. تعددت زياراتها وعطاياها. ولقد غادرت هذا المقام قبل يومين وأخذت معها الطفلة الأولى حديثة الولادة بثمانية أيام فقط. لمسنا فيها وفي مرافقيها خيرا وبركة وحسن سخاوة وجود.

الطفلة الثانية في رعاية إحدى نساء الزاوية، ولا تستطيع تحمل حضانتها وتربيتها. لقد بعثكما الله تعالى في هذا اليوم الذي يبشر بسحب الغيث المنتشرة خلال صباحه ومسائه. خير ما تترحّمين به على جدك يا لالة رابحة.

"- تعلمين يا بنيتي، لو كان الأمر في مكان آخر، ما قبلت به. لكنه في مقام رباني وروح سيدي رحال هناك. لم يتردد سيدي حمودة في قبول التبني كهبة سماوية طاهرة. كنتِ فأل سعد وخير لأبيك سيدي حمودة. صفاء جوهرة الحب التي لمعت بها حياتنا وعلاقاتنا. علّمتِنا أواصر المحبة والصفاء والإخلاص. تواطأنا على جعل الخير في عدم ذكر شيء مما مضى. وهو تواطؤ جعل طريقَ كلِّ مُخْلِصٍ فيه ببركة كبيرة ونجاح في الحياة."

ما تزال السيدة صفاء ممسكة ومطبقة على يد أمها لالة رابحة. زاد دفء الملمس وحرارته. حتى برودة امتداد الأم بعد جلوسها الذي أعياها، فوق سرير نقاهة وعلاج، تقلّصت وشعرت معها بارتياح كبير. تعرق جبينها فمسحت صفاء بَلَلَه بمنديل قطني رطب. احتاجت الأم إلى تسوية وضعية تمددها، فكانت صفاء الغارقة في دمع اغرورقت به عيناها نهرا هادئا من كل مد أو جزر، من كل إجهاش أو نحيب. تدرك وتستنتج:

- سعاد إذن أختي وتوأمي!

...

اتصال هاتفي متكرر. نظر إلى صفحة هاتفه فوجده مجددا من ابنته صفاء. تريث قبل أن يجيبها. كان مختليا وغارقا في ما ينتظر تنفيذه. شغف كبير في تحقيق طموحه بمفرده وبطريقة أكثر سلامة. مجرد تفسير لخريطة وبحث وتنقيب وانتهى الأمر. أكان ذهبا أو فخارا، لا يهم. المهم هو تحقيق الإنجاز. إنما الحياة أهل وأولاد. لا بد من الرد على المكالمة:

ـ ألو لالة صفاء.

ـ مساء النور بابا حمودة. أينك الآن؟

ـ كما تعلمين يا بنيتي، أستريح في منزل الضيعة.

ـ أريد أن ألتقيك، لقد جئت إلى الصويرة اليوم وأحتاج للكلام معك.

ـ طيب، غدا صباحا سآتي باكرا ونتحدث فيما تريدين تناوله حديثا وكلاما.

كانت الكلمات شبه جافة. ربما. لكن هذا ما شعرت به صفاء وما عبّرت به ووظفته كذلك. أما السيد حمودة فقد كان شاردا عن كل حدس لمنحى ونبرة الكلام ومقصده.

وجاء الصباح الجديد، كانت معه مدينة الصويرة متراقصة سماؤها مع سحب متفرقة وزرقة زيّنتها أشعة شمس جديدة أنعشت الخلائق والنباتات بدفئها. اختارت السيدة صفاء جلستها مع أختها بفضاء مقهى مطل على المحيط الأطلسي. داخل إطارها الزجاجي الذي يهب متعة نظر وتأمل للشاطئ والساحل وأمواج البحر والنوارس، تناولتا فطورهما. التحق بهما السيد حمودة آيت البهي حوالي الساعة الحادية عشر. تفاجأ واستنتج. فعلا جاءت ساعة الحقيقة. لاحظ الشبه بين الأنثيين. عيونهما نفس عيون المرحومة أمهما. ذلك السحر الذي أضعف جانبا من وجدانه فجعله ينقاد لرغبة وشهوة وارتباط بها. لابد له أن يواجه ساعة الحقيقة هذه. هو العمر ربما وقد اقترب ودنا إلى نهاياته، لابد له أن يبرئ ذمته ويتخلص من ديونه. لم تكن طبعا ديونا مادية. وهذه حسرته. لو كانت كذلك لهان عليه الأمر

واستطاع تسديدها. إنما هي ديون حقائق مدفونة وسر كبير مدفون أكبر من سر الكنوز التي يبحث عنها هوسا.

كان سلام سعاد على أبيها مرتبكا وحابسا لقنبلة من الانفجار. لم تدرِ إن كان هذا الانفجار صرخة أم دمعة أم صوتا مدويا بالسؤال. وهل سيكفيها سؤال واحد وجواب واحد عليه؟ ! استغرابها الذي تجلدت لكي تنتظر تجلية وتصفية سمائه من غيوم كهربت وضببت رؤياها ورؤيتها.

وكما ألفته بنته صفاء حينما يريد أن يأخذ كلمة ويطيل الحديث فيها، ابتسم وضمّ يديه كفا على كف ماسكا لهما بأنامله التي شبكّتهما. وضعهما على حافة الطاولة قبالة التوأم سعاد وصفاء، وبدأ يحكي قبل أن تنهمر الدموع من شيخ مسن سرعان ما استنتج أن كل عمره ترجمته هذه اللحظة في الانتظار والتحقق:

كنت أقضي ليال عدة بعيدا عن الصويرة. هي رحلات تجارة وصيد وبعدهما رحلات مرافقة في البحث عن الكنوز. رغم أن هذه الأخيرة لم تكن عديدة. كانت مرتفعات الأطلس الكبير مجال عشقنا في التجوال واكتشاف الجبال والصيد كذلك. وكانت

محطتنا الرئيسية في المنطلق والاستراحة هي منطقة سيدي رحال. وقتها لم يكن الرجل يحتاج لإذن زوجته الأولى حتى يتزوج بثانية. كرم ضيافة وانجذاب وتقارب مع أمكما جعلني أفكر في الارتباط. لكن ذلك الارتباط لم يحدث في حينه. كبُر الشوق فأقمنا علاقات خلال أيام اللقاء المتجدد والمتواصل، وكان حمل أمكما بكما معا. الله يرحمها. ماتت وهي تنجبكما معا. لقد ورثتما عنها لون عينيها وحسنها. كلما نظرت لصفاء وهي تكبر وتنمو كلما أوخزني فقدان المرحومة التي سكنت فؤادي. لكن القضاء والقدر أراد أن يجعلها في دار الآخرة. كنت أشعر بأنني امتلكت الدنيا بجميع ما يسعدني فيها حينما ارتبطت بالمرحومة أمكما. كانت نظرتها بعينيها المميزتين تجعلاني أترك كل ما أنا فيه منهمك من عمل أو قضايا وأشد الرحال إلى سيدي رحال البودالي. سواء كان الوقت ليلا أو نهارا. لكن تلك السعادة لم تدم. وكأن الأمر عقاب لي على أنانيتي في رغبتي في امتلاك ما أريد في الدنيا دون الآخرين.

استطاعت القابْلة المولِّدة إنقاذكما، لكن عسر الطلق أزهق روحها بعد ذلك. كنت قد انشغلت لأيام عديدة بعدها هنا بالصويرة بالضيعة والتجارة وقضايا العائلة. ودام الانشغال

شهورا دون رؤيتها لأول مرة بعد ذلك الشوق المسافر بي كل حين عندها. لم أعلم بحملها في حينه، كما بإنجابها. حينما ذهبت إلى سيدي رحال، كان الأمر الواقع، فقررت أن أجعل لكما أمان تربية وسلامة. لالة سعاد، اسمحي لي كثيرا. كنت مذنبا وقاسيا وظالما. إنما لا تنسيْ لقد كان هناك اتفاق مع أبيك سي المغراوي ومع أمك لالة عائشة لكي يقوما بتربيتك. كانا في حاجة إلى تبنٍّ وإلى طفلة يربيانها. لم أميّز بين صفاء وسعاد حينها. كان من الممكن أن تكون أختك بدَلَك في هذا الاختيار وفي هذا الحل الذي فكرنا فيه. لالة رابحة لا تعلم نصف الحقيقة الآخر، وهو أنكما بنتاي من صلبي ودمي. كل ما تعلمه أننا ذهبنا في رحلة إلى موسم سيدي رحال وقادتنا بركة الولي والزيارة إلى احتضان وتربية إحداكما بدل الأخرى. أرجو وأطلب منكما أن تسامحاني. تعلمان أن المجتمع كذلك لا يرحم. كيف لرب أسرة أن ينشئ علاقة وينجب خارج أسرته ودائرتها؟ ما لم تعلميه بعد هو أنني حضرت عرسك يا سعاد من زواجك الأول الذي علمت فيما بعد بأنه لم يستمر. طاقة صبر كبيرة وحرقة حرمان قاسية عانيتها وأنا أعيش كاتما هذه الأسرار والحقائق. لم يكن سهلا عليّ أن أنام ليالٍ متعددة. لم ترحمني حرقة المعدة في معاقبتي على كل هذا.

رنّ هاتف السيد حمودة. وبعده بثانية فقط رنّ هاتف بنته صفاء. وبينما كانت عينا سعاد قد احمرتا مع احتباس دموع حارقة، صرخت صفاء: لا ! بينما سُمِع صوت متحشرج ببكاء داخلي: الله أكبر ! البقاء لله وحده. إنا لله وإنا إليه راجعون.

توفيت لالة رابحة بعد أن كانت آخر كلمة لها قبل توجيهها في وضعيتها جهة القِبلة وتشَهُّدِها: صفاء بنتي !

انتظرت أجهزة الأمن حتى انتهاء مراسم الجنازة والدفن لكي تدعو السيد حمودة آيت البهي ليرافقها. اعتقال؟ تلبّس في جريمة قتل أطفال استغلوا في استخراج الكنوز؟ قصة الخريطة والبحث عن الكنز الدفين؟ الخريطة التي كانت سبب الشك في تورطه مع باقي أفراد العصابة التي تسرق الأطفال وتمارس جرائم سحر أسود ولعين في حقهم؟ ! فهل كان فعلا مجرما ومتورطا في ما قام به؟

الله أعلم !

عبارة رافقت حيرة كل متعطش للمعرفة مع أسئلته الشائكة حول الموضوع.

سترتعد يدا السيد عباس السالمي الماسكتين برزمة الأوراق والمستندات المرفقة في الملف. شعر طبعا بتغير وزنها بين بداية تأبطها أمانة وسيرورة ولوجها اطلاعا وتعرفا. ساءل نفسه إن كان باستطاعته الاستمرار في القراءة لتفاصيل الوصف الدقيق لهذه الجريمة في حق طفل صغير.

طلاسم كثيرة وغريبة أثثت ساحة الجريمة. وكأنه يرصدها لملف مقاضاة ومحاكمة. سيقف أمام قاضي التحقيق، وأمام هيئة المحكمة، وسيقُصّ عليهم ما شاهد وما جرى. لكن السؤال الذي سيحوله إلى جانب القضاة في جلستهم ولباسهم وياقتهم وكتفيتهم وربطة عنقهم، هو حول الجاني وحول السبب وحول القدرة على هذه البشاعة اللا آدمية. أكيد أن أفئدة المطلعين ستحترق أرقا وتتمزق إربا وألما.

(يُتبع).

كلمة تم شكل حرفها الأول وجُعِل خط تحتها دليلا على أنها حلقة مفصولة عن بيان وتتمةٍ آتيين. لاحظ السيد عباس بأن السيد عزيز قد جعل نفسه محكيا عنه. كيف انفصل كذات عن مجرى الوصف فجرّد أناه عن مجرى الحكي للقصة وأحداثها. أي انفصام في الخطاب هذا؟ مرضي أو صحي؟ لا جواب.

الكاتب حسن إمامي